أدب أحمد بن طولون

للأستاذ الدكتور / عبد الرحمن محمد هيبه

عرف الناس أحمد بن طولون سياسيا فذا ، مكن له دهاؤه فى أرض الكنانة وبلاد الشام وما اليهما ، وامتد حكمه ليشمل من الفرات الى المغرب ، ولم يعرفوه أديبا ذا بيان ناصع ولسان ذرب ، يضرب فى ميادين البيان بسهم وافر ، ومن ثم عنيت بتجلية هذا المنحى .

اطلالة على حياته :

لست معنيا بتتبع أحداث حياته لذاتها ، فتلك مهمة المؤرخ ، وانما أعنى بالوقوف على العوامل التى صنعت أدبه ، ورفدت موهبته ، وذلك قبل بحث المادة الأدبية التى جاءت نتاج ذلك كله .

(١)

لقد نجبته أعراق تركية ، فأبوه طولون مملوك تركى « أهداه نوح بن أسد السامانى عامل بخارى الى المأمون فى جملة رقيق حمله اليه فى سنة مائتين (١) ، وولد له أحمد بن طولون سنة عشرين ومائتين من جارية تعرف بقاسم (٢) ، وكانت ولاته بسامراء فى الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين ، ويقال : ان طولون تبناه ولم يكن ابنه (٣) ، وقال بعض المصريين : ان طولون تبناه لما رأى فيه من

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٧٣ تحقيق د . احسان عباس ط ـ لبنان .

(٢) سيرة أحمد بن طولون لابن سعيد المغربى نقلا عن ابن الداية ـ ط برلين سنة ١٨٤٠ نسخة مصورة عن مصورة دار الكتب المصرية .

(٣) وفيات الأعيان ١/١٧٤ .

مخايل النجابة (٤) . ولكن الرأى الثانى مرجوح ، اذ وجدت أحمد ابن يوسف الكاتب ت ٣٤٠ هـ والمعاصر لابن طولون ، والذى كتب عن عيان ومشاهدة ، ونقل عن ثقات عارفين ، واطلع على سر القوم وجهرهم يقول : (٥) « قلت لأبى العباس بن خاقان : الناس فرقتان فى ابن طولون ، فرقة تقول : ان أحمد بن طولون ، وأخرى تقول : هو ابن يلبخ التركى ، وأمه قاسم جارية طولون ، فقال : كذبوا ، انما هو ابن طولون ، ودليله أن « الموفق » لما لعنه نسبه الى طولون ولم ينسبه الى يلبخ ، ويلبخ مضحاك يسخر منه ، وطولون معروف بالستر » .

فكلا الرأيين مجمع على تركيته ، لكن الاختلاف حول أبيه ، أهو طولون أم يلبخ ؟ ، لكن نسبته الى طولون تحظى باجماع جل من أرخ له ، ولم يعرض بنسبته الى يلبخ أحد من حساده وأعدائه الذين عنوا بهدمه والنيل منه على كثرتهم ، سوى « البحترى » الذى انفرد بذلك وهو فى معرض هجاء أحمد بن طولون ، اذ شكك فى نسبته الى طولون ، قائلا (٦) :

وما زلت أخشى مذ تبدى ابن يلبخ ... على سعة من أن تدال بضيق

.. ..

ليلبخ أو طولون يعزى فقد حوت ... على اثنتين : زوج منهما وعشيق

فأيهما أداه فهو مؤخر ... الى ضعة من شخصه ولصوق

ولكن كلام « البحترى » هذا ساقط من حسابنا ، اذ رده العلامة حسن كامل الصيرفى (٧) الى الشر الذى وقع بين ابن طولون وبين أحمد

---

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٣ مصورة عن ط دار الكتب .
(٥) ذاته ٣/٣ .
(٦) ديوان البحترى ص ١٥٣١ ، ١٥٣٢ تحقيق : حسن كامل الصيرفى .
(٧) ذاته هامش ص ١٥٣١ .

ابن المدبر صاحب خراج مصر وأخى ابراهيم بن المدبر صديق البحترى الذى وجه اليه كلامه فى الأبيات الأخيرة من القصيدة نفسها .

وقد أورد البلوى ما يقطع بنسبته الى طولون ، اذ يقول : « سألت أبا العباس أحمد بن محمد الكوفى - وكان خبيرا بأمر الأتراك ، عارفا بأحوالهم - عن أحمد بن طولون وقلت له : ان الناس فى أمره فريقان ، أحدهما يقول : انه أحمد بن طولون ، وان يلبخا كان زوج أمه قاسم ، والآخر يقول : انه أحمد بن طولون ، وان يلبخا ابن قاسم جارية طولون فأكذب ذلك وضحك منه ، وقال لى : يلبخ هذا تركى سبى مع طولون ، وكان خفيف الروح يغنى بالتركية ، مستحلى الكلام ، فلما مات طولون ألزمه الوفاء له القيام بأمر ولده ، والمحافظة عليه ، فكان يركب معه حتى يوصله الى المواضع التى لم يكن أحمد يصل اليها لحداثة سنه ، وصغره عن ذلك ، وكان كل من يراه معه يقول له : هذا ابنك ؟ فيقول : نعم ، هو ابنى وابن سيدى رحمه الله .

وقال لى : ومما يدل على صحة ذلك أن « الموفق » لما لعن « أحمد ابن طولون » أسنده الى « طولون » ولم يسنده الى « يلبخ » ، ولو كان ابن « يلبخ » لما زوجه « يرجوخ » التركى ابنته ، لأن يلبخا كان عندهم مغنيا ، وطولون معروف بالستر والصيانة (٨) .

وتعقبنا هذه القضية لنتعرف البيت الذى نشأ فيه ابن طولون ، لما له من تأثير بين فى حياته ، فطولون كان من مماليك المأمون الذى قربه ورقاه حتى صار من أمراء الأتراك ، وما ظنك ببيوت أمراء الأتراك آنئذ !! . وقد عنى به طولون ونشأة تنشئة تتفق ومكانته من جهة ، وتتفق وما رآه فى أحمد من مخايل النجابة منذ الصغر من جهة أخرى ، « فنشأ على مذهب جميل ، وحفظ القرآن واتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتا به ، مع كثرة الدرس ، وطلب العلم ، وتفقه على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة » (٩) .

---

(٨) سيرة احمد بن طولون للبلوى ص ٣٤ .
(٩) النجوم الزاهرة ٣/٣ .

وبموت « طولون » سنة أربعين ومائتين ، وابنه « أحمد » فى مقتبل العمر ، ولكن أصدقاء أبيه لم يتخلوا عنه ، حتى ثبتت مرتبته ، وتصرف فى خدمة المتوكل الذى فوض اليه ما كان لأبيه (١٠) .

هذه النشأة الكريمة جعلت منه فتى دينا فقيها ورعا ، لم يرض عن سلوك أبناء جلدته من الترك الذين عاثوا فى البلاد فسادا ، « فانتشر له من حسن الذكر فى قلوب الأولياء ما زاد به على طبقته ، وتعالم وجوه الأتراك بصونه وبدينه ، حتى كان محله عندهم محل من يؤتمن على الأسرار والفروج » .

وكان أحمد بن طولون مع نفاسته وجلالته فى نفوس الأتراك شديد الازراء عليهم ، يستصغر عقولهم وآدابهم ، ويذكر أنهم قد تسنموا من المراتب ما لا يستحقون ، وأن حرمة الدين بهم مهتوكة ، وفرائضه معطلة » (١١) .

وقد رغب عن منحاهم هذا من جهة ، ورغب فى الجهاد من جهة أخرى ، لذا آثر ترك عاصمة الخلافة بترفها ونعيمها ، الى حيث أسباب النعيم الأبدى ، اذ هفت نفسه الى الجهاد فى سبيل الله ، فكانت « طرسوس » وجهته ، فقال لأحمد بن خاقان يوما (١٢) : « الى كم يا أخى نقيم على هذا الاثم لا نطأ موطئا الا كتب علينا خطية ؟ ، والصواب أن نسأل الوزير عبد الله بن يحيى أن يكتب لنا بأرزاقنا الى الثغر نقيم به فى ثواب قائم وجهاد متصل ، قال : فركنت الى هذا ، ورفعنا الى عبيد الله قصته ، فسبب أرزاقنا فى الثغر » .

وطرطوس : مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ، وما زالت موطنا للصالحين والزهاد يقصدونها ، لأنها من ثغور

---

(١٠) أنظر : سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٤ .
(١١) ذاته ص ٤ .
(١٢) ذاته ص ٤ .

المسلمين (١٣) . وبينها وبين حد الروم جبال هى الحاجز بين المسلمين والروم ، ويقال : انه كان بها زهاء مائة ألف فارس - فيما يزعم أهلها - وليس من مدينة عظيمة من حد سجستان الى كرمان وفارس والجبال وخوزستان وسائر العراق والحجاز واليمن والشامات ومصر الا وبها لأهلها دار وأكثر ، ينزلها أهلها اذا وردوها (١٤) . وقد خرج الى طرطوس عدة مرات ، بغية المشاركة فى الجهاد ، وطلب الحديث .

وقد تنوقلت أخبار تقاه وورعه وبسالته الى الخليفة « المستعين » الذى أحله من قلبه أرفع محل ، ومن ثم توالت عليه جوائزه ، ثم ما لبث الأتراك أن أجمعوا - وهم ذوو اليد الطولى فى حاضرة الخلافة العباسية آنذاك - على أن تصير الخلافة الى « المعتز » ، وينفى « المستعين » الى « واسط » مع أصلح من يختار ويرضى به من الأتراك ، « فوقع الاختيار على أحمد بن طولون ، ومضى به الى واسط . فأحسن أحمد ابن طولون عشرته ، وشكر حسن بلائه عنده ، وأطلق له التنزه والصيد ، وكره أن يدخل للمستعين حشمة منه ، فألزمه « أحمد بن محمد الواسطى » وكان يومئذ حدث السن ، حلو المشاهدة ، حاضر النادرة ، وماج غلمان « المتوكل » وخافوا على « المعتز » من كيد يلحقهم من « المستعين » وتجمع الأولياء اليه .. فكتب الى أحمد بن طولون بقتله والبعثة برأسه اليهم ويقلد بعد ذلك واسط ، فكتب اليهم : « والله لا أرى الله وأنا قد قتلت خليفة بايعته أبدا » .

وقد بعث « المعتز » الى « المستعين » من قتله وحمل رأسه ، فلم يبرح أحمد بن طولون حتى غسل الجثة وكفنها وواراها ، ودخل أحمد بن طولون سر من رأى وقد زاد محله فى قلوب الأتراك ، ووسموه بحسن التوقف وجميل المذهب (١٥) .

---

(١٣) معجم البلدان لياقوت ٤/٢٨ ط بيروت .

(١٤) المسالك والممالك للاصطخرى ص ٤٧ تحقيق : محمد جابر عبد العال الحينى ط دار القلم بمصر ١٩٦١ م .

(١٥) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٦ ، ٧ .

ووافق دخوله سر من رأى تقليد باكباك مصر ، والتماسه من يخلفه عليها ، فقيل له : أحمد بن طولون الثقة ، الأمين ، الحبر ، الدين ، الخير ، فقلده خلافته ، وضم اليه الجيش (١٦) .

وقد حدث « نسيم » ـ مولى أحمد بن طولون ـ بعد وفاة مولاه ـ وكان أخص الناس به ـ قال : عرضت على مولاى جوهرا وأعلاقا نفيسة كانت فى خزانة له ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : كانت غاية ما وعدنا به على قتل المستعين ولاية واسط ، فتركت ذلك لله عز وجل ، فعوض الله ولاية مصر والشامات ، وسعة الأحوال معها (١٧) .

وظل يبسط نفوذه على مصر والشام وما اليهما شرقا وغربا ، حتى وافته منيته سنة سبعين ومائتين .

(٢)

وقد رزق أحمد بن طولون حسا أدبيا مرهفا ، مكنه من الوقوف على جمال اللفظة والعبارة معا ، هذا الاستعداد الفطرى نمته روافد أخر ، فى طليعتها حفظه القرآن الكريم منذ الصبا المبكر ، فأفاد منه فائدة تامة ، اذ طبع على صفحة قلبه منذ الصغر ، فأشرب قلبه روعة النص القرانى ، بأساليبه المشرقة ، ومعانيه الثرة ، وأخيلته الرائعة ، فقومت لسانه ، ونهضت بذوقه ، ونمت موهبته ، حتى صار له من نصاعة البيان فى مجال الكلمة المنطوقة والمكتوبة ما يسلكه فى عداد أكابر الفصحاء المطبوعين .

وكان ذهابه الى « طرطوس » رافدا آخر نهض بذوقه ، اذ وجدها عامرة بالحفاظ والمحدثين والزهاد ، والمرابطين فى سبيل الله ، فوجد فيها بغيته ، وتعلق قلبه بها ، « فكانت أغلب البلدان على قلبه

---

(١٦) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٤٢ ، تحقيق : محمد كرد على .

(١٧) سيرة احمد بن طولون لابن الداية ص ٧ .

محبة » (١٨) . وقد وجد بها ثلة من المحدثين الأكابر ، فتبعهم ، وغشى مجالسهم ، بغية تلقى الحديث عنهم ، لذا وجدنا أحمد بن محمد ابن خاقان - رفيقه فى الرحلة الى طرطوس - يحدث قائلا (١٩) « فلما انتهينا الى طرطوس ، ورأى ما الناس عليه من الأمر بالمعروف ، ومجانبة المنكر ، أنست نفسه ، وزال استيحاشه ، وتبع المحدثين ، ولم يكن يدخل الى منزله من التشاغل بهم الا ليلا ، قال : فكنت اذا رأيته بهذه الحال أيست من أن يتصرف فى شىء من أعمال السلطان » .

فكانت أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم أنسه ابان بقائه فى طرطوس ، وتردده عليها ، وهى مورد عذب للبيان الساحر الأخاذ ، فكانت المورد الثانى الذى عب من حياض بلاغته .

هذا الاستعداد الفطرى ، وما انضم اليه من روافد ، صيرته أديبا ذا قدرة قادرةعلى صياغة معانيه صياغة بيانية سلكته فى عداد الساسة الفصحاء .

(٣)

وكانت فصاحته ونصاعة بيانه جلية لكل المحيطين به ، والمخالطين له والعاملين فى بلاطه .

١ - روى أبو جعفر بن عبدكان - رئيس ديوان الانشاء فى الدولة الطولونية - أنهورد عليه (على أحمد بن طولون) كتاب متملك الروم يسأله الهدنة ، فاجابه الى ذلك وقال له : أكتب الى طخشى - عامله - بطرسوس أن متملك الروم سألنا الهدنة مدة كذا وكذا ، وقد أجبناه الى ذلك ، على علم منا أنه لم يدعه الى ما سأل اشفاقا من سفك الدماء ، ولا تحوز لطلب السلامة ، بل أظن ، وهو كذلك ، أنه قد خربت له قصور أو استرمت (٢٠) ، أو لحقه من بعض أعدائه اضطراب اضطره الى

---

(١٨) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٤٧ .
(١٩) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٤ .
(٢٠) استرم الحائط : دعا الى اصلاحه وحان له ان يرم .

الهدنة هذه المدة ، ومن الخسران المبين أن يكون بما التمس من ذلك أسعد منا ، واذا قرات كتابى هذا تعاهد جميع الحصون التى بقربك ، فرم منها ما استرم ، واعمر منها ما خرب ، وجدد منها ما أخلق ، وانفق على ذلك من مالى الذى فى أيدى وكلائى فى ضياعى التى تقرب منك ، وفرق فى صعاليك أهل الثغر ممن تضر به هذه الهدنة ما يقيم أودهم ويكفيهم ، وأوسع عليهم فى ذلك ، وطالعنى بما يكون منك فيه ، فانى أراعيه ان شاء الله .

قال ابن عبدكان وكان مضطلعا بالكتابة : فوالله العظيم ما حضرنى لهذا أحسن من معانى ألفاظه كلها ، فلم اتجاوزها ، وانفذ الكتـــــاب وعمل به » (٢١) .

فهو يملى ما يريد ، ليعبر عنه كاتبه « ابن عبدكان » بألفاظه ، لكن ابن عبدكان ـ وهو الكاتب المفتن ـ يلمس بحسه الفنى نصاعة بيان الأمير ، وقدرة ألفاظه على أداء معانيه فى دقة واحكام ، مع سلامتها من العيوب المخلة بفصاحة الكلمة والكلام ، ومن ثم لم يجد لنفسه مجالا للتدخل بلفظة أو باخرى ، فأبقى على كلماته وأسلوبه كما هو ، وقوله : فوالله العظيم ما حضرنى لهذا أحسن من معانى ألفاظه كلها فلم اتجاوزها» دليل على اعجاب الكاتب الفذ بكل ما أملاه عليه أميره ، ولا يظنن ظان أن ابن عبدكان قال ذلك تملقا ومداهنة أو رهبا ، فان المتتبع لسيرة ابن عبدكان مع أحمد بن طولون ينفى عنه الزعم الأول ، وعمله على رأس ديوان الانشاء لا يجعله يرهب الأمير فيبقى على كلامه كما هو بلا ادنى تبديل ، ولم تك تلك بغية الأمير الذى كان يطيل النظر فى الرســـائل التى كانت تصدر عن ديوان انشائه ، وينفذ الرسائل ويوجه كاتبيها .

لذا نذهب مطمئنين الى أن قدرة ابن طولون على التعبير المحكم هى التى دفعت ابن عبدكان شيخ كتاب الدولة الى الابـــــقاء على ألفاظه كلها .

---

(٢١) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ١١٠ .

٢ ـ كذلك حدث أبو جعفر بن عبدكان قائلا : « كنت أنشىء كتب أحمد بن طولون السلطانية وأنفذها ، فترد عليها أجوبة بغير ما صدرت الكتب به ، فأعلمته بهذا فضحك ، وقال : الأجوبة فى الكتب على شىء ألحقته فيها لم أطلعكم عليه » (٢٢) .

ومن البداهة ان نقول : ان ما يضيفه أحمد بن طولون الى رسائل كتابه مما قد يعن له ، ينحو فيه منحى كتاب هذه الرسائل لحمة وسدى ، اذ لا يعقل أن تصدر عنه رسالة الى خليفة أو أمير مهلهلة ذات رقاع ، وليس أحمد بن طولون نفسه هو الذى يرضى بذلك ، اذا علمنا ان كتابه كانوا مبدعين ذوى ملكات فنية مواتية ، وقدرات على الكتابة الفنية قادرة ، أمثال : ابن عبدكان ، والحسن بن مهاجر ، وأحمد بن محمد الواسطى ، ومحبوب بن رجاء ، ويعقوب بن اسحاق ، وأحمد بن أيمن ، وأبى معشر ، وابن حدار ، وغيرهم ، أدركنا أن ابن طولون لم يكن أسلوبه دون أساليب هؤلاء ، جزالة لفظ ، ولطف حيلة ، ونصاعة بيان ، وقدرة على التعبير عن مستكنات النفوس .

٣ ـ كذلك وجدت « البلوى » يقول (٢٣) : « ان كتابه لم يكونوا يختمون كتابا ، ولا يحررون نسخته حتى يعرضوه عليه ، فان استصابه أمضاه ، والا غيره » .

فهو يتفحص رسائل كتابه ، ويبدى رأيه ، فان استصاب الكتاب أمضاه ، والا غيره ، وتلك مهمة لا يقدر عليها الا بليغ مطبوع اللسان ، فهو ينقد كتابا كبارا لهم فى ميادين فن الترسل باع أى باع ! .

٤ ـ كذلك وجدته ذا قدرة قادرة على تمييز كلام الكتاب بعضهم من بعض ، ومعرفة مذاهب كل منهم ، ورد كل عبارة الى صاحبها ، اذ كان ابان خروج ابنه العباس عليه ، ومنازعته اياه السلطة ، وانشقاقه عنه ـ « اذا قرأ كتابا من العباس اليه ، تمر به اللفظة البشعة فيقول :

---

(٢٢) سيرة احمد بن طولون لابن الداية ص ٤١ .
(٢٣) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٢٦٩ .

هذا من كلام أبى معشر ، وهذه اللفذلة من كلام الشيخ السوء ابن حدار ، وهذا من كلام فلان ، وهذا من كلام فلان ، لأنه كان يعرف كلام كل واحد منهم ومذاهبهم » (٢٤) .

وتلك درجة من النقد لا يرقى اليها الا الأفذاذ ، الذين رزقوا حسا مواتيا يفرقون به بين مذهب كاتب وآخر ، على الرغم من كثرتهم .

٥ ـ ومنها أنه لما استكتب فى خرجته الى الشـــام أبا الضـــحاك محبوب بن رجاء ، ولم يكن بالكامل ، الا أنه كان حاضر الذهن ، حـلو الألفاظ ، فعرض عليه يوما كتابا فلم يقل فيه شيئا ، فأنفذه محبوب ، فسأله عنه أحمد بن طولون بعد أيام فقال له : قد أنفذته ، فحرد واغتاظ ، وقال له : ويلك ، حق الكتب أن تراجع فيها الأفكار ، وقد كان ينبغى أن تؤخر انفاذه وتراجعنى فيه ، فكانت كتبه بعد ذلك تؤخر لمراجعـــة النظر ، والتصفح بعد الانشاء ، وجعل لها ديوانا » (٢٥) .

وتلك قضية لا يفطن اليها الا أديب يقف على مرامى الكلام ، ويود الا يصدر عن ديوان انشائه الا ما هو سليم العبارة مشرق الديباجـــة معبر تعبيرا دقيقا عن معانيه ، بحيث اذا تأمله متأمل لم يجد ثلمة فيه .

٦ ـ كذلك حدث اسحاق بن ابراهيم قال : قلت لسعيد بن نوفـــل طبيب أحمد بن طولون ، وقد صار الى بعد قدومه بيوم يسلم على ، ويشكو الى ما عاناه من علة أحمد بن طولون : ويحك ، أنت حاذق فى صناعتك ، فاره فيها (٢٦) ، وليس لك عيب الا أنك مدل بها ، غير خاضع لمن تخدمه بها ، **والأمير وان كان فصيح اللسان ، هـــو أعجمى الطبـــع** » (٢٧) .

---

(٢٤) ذاته ص ٢٦٩ .
(٢٥) ذاته ص ١١٢ .
(٢٦) فاره : حاذق .
(٢٧) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٣١٩ .

فالقاصى والدانى يعرف عن أحمد بن طولون أنه من أرباب اللسن ، والعلم بمعانى الكلام ، والتعرف على مناحيه .

هذه كلها وغيرها دلائل قاطعة على ما منحه أحمد بن طولون من حس أدبى مكنه من امتلاك أعنة البيان ، وامتطاء صهوته الى حيث يشاء .

أدبـــــه :

لسنا ـ ونحن نسم ابن طولون بسمة الفصاحة ـ نلقى الكلام علـى عواهنه ، ونطلق الأحكام جزافا ، منبعثة عن عاطفة الاجلال له ، لدينه وورعه وحنكته ، اذ بدت فصاحته تحدث عن نفسها منذ صباه المبكر ، وقبل أن تطأ قدمه أرض مصر سنة أربع وخمسين ومائتين ، وفى اعتقادى أن نصاعة بيانه كانت أحد الأسباب التى حملته الى مقاليد الحكم فـــى مصر وغيرها ، مضافا اليها ذكاؤه وفطنته ودينه وثاقب نظره وفراسته . ومن ثم ينبغى الاحتكام الى أذواقنا ، ومقاييس البلاغة والجمال فى لغتنا من خلال وقفة متأنية مع طائفة من أقواله فى مواطن وأغراض شتى .

وقد حرصت على انتقاء هذه الأقوال من بين ما أورده « ابن الداية » ت ٣٤٠ هـ فى سيرة أحمد بن طولون ، وهى نص موثق دقيق ، سجله أديب راوية ثقة بعد وفاة ابن طولون بسنوات معدودات . كذلك اعتمدت على سيرة ابن طولون للبلوى ، وهى نص موثق أيضا ، اذ اتكأ البلوى اتكاء بينا على ما رواه ابن الداية ، يقول الأستاذ محمد كرد على محقق الكتاب (٢٨) : « استنتجنا من رواية المؤلف عن أناس رووا عن ابن الداية أن البلوى ألف كتابه فى الثلث الثانى من القرن الرابع فى أرجح الظن ، لأن ابن الداية هلك على أقرب الروايات الى الصحة بعـــد نيف وثلاثين وثلاثمائة ، فالكتاب ألف اذا بعد أكثر من ستين سنة مضت على وفـــاة ابن طولون » . وقد سقت هذا ليطمئن القارىء الى سلامة نسبة هـــذه النصوص الى أحمد بن طولون .

---

(٢٨) سيرة احمد بن طولون للبلوى ص ٧ من المقدمة لمحمد كرد على

(٩)

كانت مواقف الحكم المختلفة تتطلب من « ابن طولون » أن يرتجل الكلام دون سابق اعداد ، بل بلا أدنى روية أو تفكير ، لكنه كان يمكن من وضع الهناء مواضع النقب ، فى عبارات فصيحة ، وأسلوب عذب محكم النسج .

فها هو ذا يوجه كاتبه الحسن بن مهاجر الى ما ينبغى أن يكون عليه الكاتب من أن يمحضه النصح ، وألا يتجنى على أحد ، ويرسم له الطريق التى ينبغى أن يسلكها فى معاملة الرعية ، قائلا (٢٩) : « قد صحت عندى نصيحتك ، وأنت غير محتاج أن تتحامل على أحد لتزيد عندى ، وأنت تجنى على من ذلك الآثام واستيحاش الناس منى ، أكثر مما تحوزه لى من الحظ ، واعلم أنك تزرع فى قلوب الناس بما تأتيه حقدا لا تفنيه الأيام ، بل تتوارثه الأعقاب ، فاطلب الشكر من الناس ، فليس يكرهه الا ناقص المعرفة ، جاهل بما يوجبه حسن السياسة ، غير عالم بما فى باطن النصيحة ، فميز الناس تمييز عادل ، تلق شرارهم بغلظتك ، وخيارهم برأفتك » .

هذا القول فضلا عن أنه أنموذج انسانى رفيع لما ينبغى أن يتحلى به الحاكم من نصفة وكياسة وثاقب نظر ، فيه براعة فى القول ، وتمكن من ناصية البيان ، فهو قد انتقى الألفاظ الجزلة المعبرة عن معانيه تعبيرا دقيقا ، وعباراته تؤدى معانيه فى يسر ، وتوحى بأكثر منها على قلة ألفاظها ، وبراءتها من الغموض والكزازة والحشو .

والمتأمل فى عبارات مقولته هذه يجدها نتاج الحكمة وغاية العقل ، اذ حرص على اقناع كاتبه بمغبة مسلكه الجائر على الرعية ، فأرشده الى أن ذلك لا يدنيه منه ، بل يزهده فيه ، وكم كان فطنا حين أرشده الى أن ذلك ليس لزهد فيه عن كاتبه ، بل لما يجنيه سلوك الكاتب على الأمير من رغبة الرعية عنه ، وما يجره عليه هذا السلوك من آثام ينوء بها كاهل الأمير فى الآجلة . وقد حرص على تثبيت هذا المفهوم فى ذهن كاتبه ،

---

(٢٩) ذاته ص ١٤٥ .

وتقريبه الى فهمه ، فعمد الى تجسيد هذا الأمر المعنوى ، بابرازه فى صورة محسة مجسدة ، اذ عقد مشابهة بين الأحقاد التى تستكن فى الأغوار البعيدة فى أعماق نفوس الرعية ، وبين زرع خبيث يعطى ثمارا منفرة تبعث على الضيق والضجر ، وتكون وبالا على المرء ، فهو يعتمد على الاستعارة التى تكاد تلامس الواقع .

وهو بصدد ابراز معانيه وتثبيتها لجأ الى الترادف تارة فى قوله : « لا تفنيه الأيام ، بل تتوارثه الأعقاب » ، والمقابلة تارة أخرى فى قوله : « تلق شرارهم بغلظتك ، وخيارهم برأفتك » ، وفى الجملتين الأخيرتين تفصيل بعد اجمال ، جاء فى قوله : « فميز الناس تمييز عادل » ، ليكون للكلام فى النفس وقع خاص .

كذلك حدث أحمد بن أيمن قال (٣٠) : قال لى أحمد بن طولون يوما : اطلب لى رجلا زكى الروح ، صادق اللهجة ، صحيح التمييز ، لمهم لى أريده » .

والعبارات على وجازتها توحى بفيض من المعانى ، وتنبىء فى الوقت نفسه بفنان مرهف الحس ، دقيق الادراك بمواقع الكلمات ، واتساقها مع معانيها .

وشكا شيخ من الرعية الى أحمد بن طولون غبنا أصابه من عمال خراجه ، فأحضر العامل وقال له (٣١) : « ويحك ان الضياع تشبه البستان ، والمزارعون شجره ، فان رفق بهم ، وأحسن القيام بأمرهم ، ورعوا باصلاحهم ، طلعت الثمرة ونمت وزكت ، وان لم يفعل ذلك هلكت الشجر وذهب ثمرها ، فأحضر كاتبك الساعة ، ومختار الناحية الى ها هنا ، ولا تبرحا حتى تنصف هذا الشيخ من ظلامته ، وتبلغ له ما يحب وتعرفنى ، فانى ها هنا أراعى ما يكون منك فى أمره . وأزال عنه الظلم وسامحه ، وأفضل عليه ، ووهبه من الدنانير ما يعينه ومازحه ،

---

(٣٠) ذاته ص ١١٥ .

(٣١) ذاته ص ١٩٠ ، ١٩٢ .

فانكب الرجل ليقبل الأرض ، فمنعه من ذلك وقال له : احذر ثم احذر أن تفعل هذا بأحد المخلوقين ، فانه لا يؤثره الا كل جبار عنيد ، والسجود لله وحده عز وجل » .

فقد شبه الضياع ببستان ، وشبه المزارعين بشجره ، والشجر متى تعهد بالعناية والرعاية أعطى ثمارا دانية القطوف ، وهو بذلك يدعو عماله الى الحفاظ على الرعية ، ودرء الظلم عنها ، كى تكون عضده وساعده المؤازر ، هذا التصوير من شأنه تثبيت المعنى الذى يحرص المتكلم على تثبيته ، وعمد فى سبيل هذه الغاية الى الترادف أيضا فى قوله : ان رفق بهم ، وأحسن القيام بأمرهم ، ورعوا باصلاحهم ، وفى قوله : « هلكت الشجر ، وذهب ثمرها » .

وفى لفظة الشجر ايحاءات شتى ، منها ما تمنحه من استقرار نفسى لمتأملها ، وظل ظليل لمن يفىء اليها ، وثمار طيبة لآكلها ، وكذلك الرعية التى لم تروع بظلم أو قهر أو استبداد ، تكون باعث اطمئنان لراعيها ، وردءا له يحوطه ، ويحول بينه وبين أعدائه ، كذلك نلمس الأمر نفسه فى قوله : نمت وزكت ، فان دفع الجور عن الرعية يدفعها الى الاخلاص لراعيها .

وفى المقولة تأثر بين بالقرآن الكريم يمتح من معانيه الثرة ، فى قوله عن ذلة المحكوم وخضوعه لحاكمه : « انه لا يؤثره الا كل جبار عنيد » .

والمتأمل فى هذه القطعة يلمس التناسب الدقيق بين الكلمة المعبرة ونوع الاحساس وقدره ، بحيث تكتسب الكلمة رقتها أو جزالتها وطبيعة جرسها من طبيعة الشعور الذى يسيطر على صاحبها ، تلمس ذلك فى قوله : « ان الضياع تشبه البستان والمزارعون شجره ، فان رفق بهم ... الخ ، وفى قوله : « فانه لا يؤثره الا كل جبار عنيد » . فالكلمات فى الموقف الأول انسابت فى رقة ، وانداحت فى عذوبة ، أما كلمتا جبار وعنيد فتنم كلتاهما عن ثورة نفسية حادة .

وحدث نسيم الخادم قائلا (٣٢) : « قلد مولاى الشرطة السفلانية قائدا من قواده ، وقال له : ارفق بالرعية ، وانشر العدل عليهم ، واقض حوائجهم ، وأظهر اكرامهم وصيانتهم ، وتفقد مصالحهم ، فانى أسير بالليل فى محالهم ، فكل موضع أمر به لا يخلو من قارىء أو متهجد أو داع أو ذاكر لله عز وجل ، فوفر علينا دعاءهم لنا ، واحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا .

ويقول لمن يقلده الشرطة الفوقانية : تشدد عليهم ، وأرهبهم منك ، ولا تلن لهم ، واغلظ عليهم ، فانى أسير فى محالهم فما أسمع فيه الا غناء أو سكران أو معربدا ، قد أخرجته عربدته الى الوثوب على والكفر » .

فهو يبصر قواده أحوال الناس التى وقف عليها ، وما يتطلبه ذلك من معاملة خاصة تتفق وحال أهل كل منطقة من الرشاد أو الغى . وهو فى هذه القطعة كسابقاتها يعمد الى الكلمات الرصينة ، والعبارات المحكمة ، والتناسب الدقيق بين الكلمة المعبرة ونوع الاحساس ، كما عمد الى جمل ذات جرس يتواءم وما استكن فى أغوار نفسه : تشدد عليهم ، وأرهبهم منك ، ولا تلن لهم ، واغلظ عليهم .

والجمل القصيرة اذا جاءت متوازنة أو مسجوعة كانت أكثر تأثيرا فى النفس بجرسها . وقد راوح بين الجمل الطويلة والجمل القصيرة ، وعمد كذلك الى التكرار المعنوى ، والالحاح على الفكرة الواحدة بأساليب متعددة ، وذلك لتأكيد الفكرة ، واستمالة الآخرين اليها . وأسلوبه مضمن معان قرآنية : لا تلن لهم ، واغلظ عليهم . ولا يفوتنا أن ننبه الى براعة التصوير ودقته فى قوله : « واحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا » ، اذ صور الدعاء عليه بعدو تتقى صولته ، ومرد فهمه هذا - فى تصورى - الى أنه أشرب فى قلبه الايمان الذى يغرس فى نفس صاحبه أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .

---

(٣٢) ذاته ص ٢٠٥ .

قال ابن الداية (٣٣) : « وحدثنى نسيم الخادم ، طلب أحمد ابن طولون سعيد بن نوفل طبيبه ، فقيل له : مضى يستعرض ضيعة يشتريها ، فأمسك حتى حضر ثم قال له : يا سعيد : اجعل ضيعتك التى تستغلها صحبتى ، وواصل مراعاتها ، ولا تقطعها ، واعلم أنك تسبقنى الى الموت ان كان موتى على فراشى ، وانى لا أمكنك بشىء من الاستمتاع بعدى . فقال بعض الغلمان : ما سمعت حثا لمتطبب على مبالغة فى سعى أحسن من هذا » .

فابن نوفل يسعى لتحصيل مآرب دنيوية ، وابن طولون يبصره ما هو أجدى عليه ، وأكثر تحقيقا لمآربه ، الا وهى صحبته ، لكنه ساق ذلك فى صورة جذابة محكمة ، اذ قال له : « اجعل ضيعتك التى تستغلها صحبتى » ، مصورا صحبته بضيعة ، فاذا كانت الضيعة ترضى طموحاته المادية ، فان صحبة ابن طولون أكثر تحقيقا لتلك الطموحات ، وتلبية لرغائب نفسه ، وقد أكثر من الأساليب الانشائية المترددة بين الأمر والنهى، تعبيرا عن مكنون نفسه .

وهذه « نعت » أم ولد أحمد بن طولون تقول (٣٤) : « اجتمع عندى جوار أهدين الى مولاى فلم يطلبهن ، وشوقته اليهن بحسن الوصف لهن ، فوصف شغلا ، ودخل الى يوما من الأيام وهو منشرح ، فذكرت له الجوارى ، فقال : اعرض على واحدة واحدة ، فنظر الى أولاهن فقال : حسنة والله ، ثم أمر بعض خدمه بالمسير بها الى بعض غلمانه ، وأن يقول له : اطلب بحياتى منها الولد سرك الله وكثرك ، ولم يزل بواحدة واحدة مثل هذا حتى استوفى عدتهن ، فتبين الغيظ فى وجهى ، فضحك وقال : أراك مغيظة ، فقلت : يا مولاى آثرت غلمانك على نفسك ، فقال : قد ارتفعت عن اللذة بهذه الأشياء ، وانما الذ بحراسة دولة ، واحياء سنة ، وضبط نعمة ، ومن سلك هذه السبيل اضطر الى من يضافره على أموره ، وهؤلاء الغلمان عندى ينتسبون الى انتساب الأبناء الى الآباء ، وشهواتهم مقصورة على الأكل والشرب والنكاح ، وأنا

---

(٣٣) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٢٨ .

(٣٤) ذاته ص ٢٦ ، ٢٧ .

أوثرهم بما نصبوا له وارتفع عنه ، وبالله انى لأجد فى فهم الرجل عنى ، وافهامه اياى ، من الالتذاذ اكثر مما يجد مجامع الحسناء من لذة جماعها ، فقلت له : وفق الله سيدى وأحسن عونه » .

فهو فى الفاظ جزلة ، وأسلوب محكم رصين ، يفصح لأم ولده عن بواعث رغبته عن هؤلاء الحسناوات ، على الرغم مما ينعمن به من جمال اخاذ ، فابان انه معنى بما هو أبقى وانفع ، مما يتفق وطموحاته ، اما غلمانه فوكدهم تحصيل الملذات على اختلاف مناحيها ، وانهم له ردء ، لذا فهم منه بمثابة الأبناء ، ومن ثم آثرهم بما يحبون ، وابقى لنفسه بما تهوى من أسباب العلياء فى العاجلة والآجلة .

وقد انتقى لمعانيه هذه الألفاظ المعبرة عنها بدقة واحكام ، وعمد الى الجمل القصيرة المتوازنة المسجوعة تارة ، والى الجمل الطويلة تارة اخرى ، نزولا على ما يقتضيه المقام ، وكلها تتضافر فى الابانة عن معانيه ، بعيدا عن تكلف القول ، مما يشير الى أن هذه التراكيب تجرى مع الطبع فى مضمار ، مما يكشف عن حس لغوى راق ، بدا فى انتقاء الألفاظ ، ووقوع كل منها موقعه ، ومناسبته لمعناه ، بحيث لا يغنى عنه سواه ، كما انها خلو من لفظة وحشية أو اخرى سوقية ، ومن ثم بدت رخيمة الجرس فى آذان السامعين .

وتحدث « نعت » قائلة أيضا (٣٥) : « كنت عند مولاى بائتة فسمعته يحلم فى نومه ، فخفت أن أنبهه فينكر على هذا ، فانتبه وجلس ومسح عينيه ، وقال : « خير ان شاء الله » . فسألته عما رأى فقال : رأيت ابن مدبر (٣٦) قائما فى وسط برية ، ومعه قوس موترة وسهام ، وأنا تجاهه قائم ، ومعى جميع السلاح الا القوس ، وبيننا نهر ، فكانه يسدد السهم نحوى ويرمى ، فأخطانى ، وكأن قائلا يقول : لو رماك يومه كله لما أصابك به ، لأنه عاهدك ، وما يضر هذا الفعل غير نفسه ، فكانه

---

(٣٥) المكافأة وحسن العقبى لابن الداية ـ تحقيق الشيخ محمود شاكر ص ٨٨ ـ ط بيروت بدون تاريخ .

(٣٦) أحمد بن محمد بن مدبر ، متولى خراج مصر .

اشتد على انهماكه فى الرمى لى ، وليس فى يدى غير سيف وشرخ (٣٧) وما أشبههما ، لا تعمل فى البعد ، وقد حال النهر بينى وبين العبـــور اليه . فانا على هذا ، حتى نضب النهر فلم يبق فيه قطرة ، فعبرت اليه ، فكأنى كنت كلما قربت منه يصغر ، حتى صار بمنزلة من يواريه الكف ، فأخذته بيده أستطرفه ، ثم ألقيته من قامتى على رأسه فمات . فتأولت سهامه المكاتبة فى والتحريض على ، والنهر الذى منعنى منه : مقام ماجور بدمشق (٣٨) ، ونضوبه موت ماجور ، وصغره : قدرتى عليه ، واجتيازه فى كفى : قبضى عليه ، وقول القائل لى فى السهام : انها تخطئك : أن الله لا يعينه على » .

هذه القطعة شاهد صدق على طبع موهوب منحه أحمد بن طولون ، فالمقام ليس مقام تفكير أو روية ، وليس مقام تصـــنع وتدبيج كـــلام مزخرف ، فهو مستيقظ من نومه دهشا ، يقص على احدى أمهات أولاده ما رآه فى منامه ، وتفسيره لما رأى ، وقد ساق ذلك كله فى ثوب أدبى رفيع ، فالكلمات جزلة فخمة ، تعبر عن معانيه تعبيرا دقيقا ، وكـــأن التراث اللغوى ماثل بين يديه ينتقى من حباته جيادها ، والعبارات سيقت فى ثوب محكم ، وقد كنى بقوله : « صار بمنزلة من يواريه الكف » عن تضاؤل حجم عدوه أمامه .

وقال أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب (٣٩) : لما أطلقنى أحمد ابن طولون ألزمنى الصناعة ، فدعانى يوما فقال : كلما تعمل من العدة فانه يكتفى بالقليل مع تقدم هيبتى فى صدور الناس ، الا المراكب ، فـــان البحر لا يتقينى ولا يخاف سورتى ، وليس يعمل فيه الا وثاقة الصنعة ، وتقديم الاحتياط ، فقدموا الحزم فى المراكب ، واستزيدوا من الانفاق عليها تسلموا بتوفيق الله من معرة (٤٠) البحر » .

---

(٣٧) الشرخ : النصل الذى لم يشق بعد ولم يركب عليه قائمه .
(٣٨) ماجور : الوالى التركى ، وكان صهر أحمد بن طولون .
(٣٩) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٢٨ .
(٤٠) المعرة : الأذى .

ما تزال كلماته رصينة جزلة ، ذات جرس موسيقى رخيم ، ومـــا تزال عباراته منسابة فى يسر ، خلوا من كل مظاهر التصنع ، وقد هداه خياله الى تصوير البحر بصورة انسان جسور غير هياب .

وكان ابنه « العباس » قد رفع لواء العصيان عليه ، ســـنة خمس وستين ومائتين ، وانحرف عنه ، وانحاز الى « برقة » وانحاز اليه نفر من القواد والجند والكتاب ليسو بالقليل ، وحمل معه أموالا وآلات كثيرة ، لكن أباه تغلب عليه ، ورده ومن معه الى « القطائع » على الرغم منهم ، ولما مثلوا جميعا بين يديه أمر ابنه العباس بقطع أيدى وأرجل أصحابه ، فنزل على أمر أبيه دون نقاش ، وبعد أن أنهى المهمة قال له أبوه (٤١) : « قبح الله هذا من رأى وعقل ، ويل لك بهذا العقل ، وبهذا الرأى قدرت الرياسة ؟ يا ويلك ، لم لم تجعل العوض من مبادرتك وتسرعك الى قطع أيدى أصحابك هؤلاء ، استلقاءك بين يدى ، وتضرعك الى ، ومسألتك اياى الصفح عنهم وعنك ، والعفو عن جميعكم ؟ فكان ذلك أجل لك ، وأعظم لمحلك ، وأكبر لمنزلتك ؟ وتقضى بذلك حق من حمل نفسه فى طلب مرضاتك ، ومساعدتك على خطة الهلاك فيها ، وقد فارق وطنه وأهلـــه وولده ، وتبعك فى هواك ، فجعلت يا ويلك ، مجازاته على تحمله فيك من المكروه ، قطع يديه ورجليه بيدك ، ثم ايتام ولده وارمال عياله ، ولكن ما وفقت لما تأتيه فتصونهم عما حل بهم منك منة عليك ، وعزيز على أن يكون هذا وزنك ، ومقدار عقلك » .

فالرجل مغيظ محنق لعقوق ابنه البكر العباس ، وما سولته له نفسه ، أسف حزين لفقدانه الكياسة والحنكة ، وهما من مقومات الساسة الأفذاذ الذين يؤهلون للقيادة ، ومن ثم جاءت هذه القطعة الأدبية فيض قلب مكلوم فجع فى أحب الناس اليه ، وأقربهم منه ، وكان المنتظر ممن فى مثل موقفه أن تميد به الأرض ، وأن يغيض فيض اللغة التى ينهل من وردها ، وأن تغطى العقل كدرة تحول بينه وبين القول المحكم السديد ، لكنه على الرغم من ذلك كله نثر كنانته فانتقى من الألفاظ أصلبها عودا ، وأقدرها على التعبير عن مكنونات نفسه ، وجاءت عباراته متراوحة بين

---

(٤١) سيرة احمد بن طولون للبلوى ص ٢٧٠ .

القصر والطول ، وقد جاءت جلها مزدوجة متوازنة تنبعث منها موسيقى خلابة . وكلماته وعباراته كلها أنة مكروب ونفثة مصدور .

ويقول أحمد بن طولون (٤٢) : « انه جل اسمه ليلهمنى أن أحنو على الضعيف ، وأسطو على العنيف ، وهكذا وصف الله عز وجل خلصه فقال : « اشداء على الكفار رحماء بينهم » فالحمد لله على ما من به على من ذلك » .

فهو فى عبارات موجزة فصيحة يحدد منهجه فى الحكم ، من حنو على الضعيف ، وغلظة على العنيف ، تأسيا بأصحاب النبى ﷺ ، وتلك منة عظمى . وقد عمد الى المقابلة بغية ابراز المعنى وتوضيحه ، فوضع النقيض الى نقيضه يزيد كليهما وضوحا وجلاء . وجاءت عباراته مضمنة بعض آية قرآنية تدعم منهجه فى الحكم ، وتطرى القائمين عليه .

كذلك روى « ابن الداية » أن أحمد بن طولون « اجتاز فى شارع الجمراء القصوى بدار مشرفة يتطلع منها رجل شيخ وسيم ، فلما رآه الشيخ بادر بادخال رأسه ، وأغلق الطاق الذى كان يتشرف منه ، فقال للقاسم بن شعبة ـ وكان معه ـ أحضرنى شيخا وسيما فى هذه الدار الشارعة الى دارى ، فسبقه القاسم بن شعبة الى الميدان (٤٣) ، فلما جلس دعابه ، وقال له : من أين أنت ؟ قال : من الطالقان (٤٤) ، وسأله عن قدومه ودعا له بالسياط ، فقال : لا تعجل على ، انى كاتب خبر السر فى هذه البلدة لتصحيح ما يورده أصحاب الأخبار ، قال له : أنت العطار ؟ قال : نعم ، فقال له أحمد بن طولون : قد وصف لى عنك صدق لهجة ، ومحل لطافة ، فكيف رضيت لنفسك بخدمتهم فى هذه المشقة

---

(٤٢) ذاته ص ١٨٥ .

(٤٣) قصر بناه أحمد بن طولون حين ضاقت به دار الامارة ، وجعل فيه ميدانه الذى يلعب فيه بالكرة ، وسمى القصر كله بالميدان . أنظر : النجوم الزاهرة ٣/١٦ .

(٤٤) بخراسان بين مرو وبلخ ، اكبر مدينة بطخارستان ، خرج منها جماعة من الفضلاء : أنظر : معجم البلدان ٤/٦ .

البعيدة على هذا الخطر الغليظ ؟ وأنا أدعوك الى أن تخدمنى فيما خدمتهم فيه .

فقال : أيد الله الأمير ، القوم اصطنعونى وسبقوك الى ، ولا اكون عليهم بعد أن كنت لهم ، ولو صبرت على ألم العقوبة لما اعترفت ، وما علمت خروجى الى مصر أنك تستبقينى ان ظفرت بى ، ولأن يقتلنى الوفاء أحب الى من أن يحيينى الغدر ، ولا أنا ممن يعدل خوفا من بأسك بما يحول عنه فى الأمان منك ، واحراق النار أسهل عليه من تغيير شيمته ، واستحالة طويته ، فقال أحمد : منعتنى من الاساءة اليك ما ظهر لى من الفضل فيك ، ووالله لانلتك بمكروه أبدا ، فاختر لنفسك أيهما آثر عندك : المقام ببلدى مع مجانبة الخلاف على ، أو الانصراف عنه ، قال : الانصراف عنه ان تطولت به ، فبره وأحسن اليه وأخرجه مكرما » (٤٥) .

عبارات معدودات جرت على لسان أحمد بن طولون ، تبدى آيات تفنن وتمكن واقتدار ، فها هو ذا يصف الطالقانى وصفا متأنقا ، ثم يستنكر قيامه بخدمة أعدائه خدمات قد تودى بحياته ، ثم دعاه الى العمل فى معيته هو . ولما لمس فضله ووفاءه قدر له كريم شيمه ، وأبدى الصفح عنه ، وخيره بين البقاء فى رحابه رخى العيش ، بعيدا عن ركوب بنيات الطريق ، والانصراف عنه ، فاختار الطالقانى الثانية . وذلك كله فى ألفاظ جزلة قوية ، وعبارات متأنقة ، وترتيب منطقى ، وذلك كله يشهد لابن طولون بذوق أدبى راق ، وقدرة على التعبير المحكم السديد ، وعقل راجح ، ونظر ثاقب ، وتلك صفات تنطق بها مواقفه كلها .

(٢)

الوصية لون نثرى يودعه الموصى خلاصة تجاربه ومكنون نفسه ، بغية اصلاح النفوس وتهذيبها ، « وهى تكون من حكيم لقومه ، أو سيد لعشيرته ، أو أب لبنيه ، أو أم لابنتها ، ويغلب أن يكون ذلك عند الاحساس بدنو الأجل ، أو العزم على الرحلة » (٤٦) .

---

(٤٥) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٣٦ .

(٤٦) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى - لمحمد هاشم عطية ص ٧٥ مطبعة العلوم ١٩٣١ م .

وابن طولون رجل عركته التجاريب ، وكشفت منه عن رجل فطن ، ذى عقل راجح ، ونظر ثاقب ، وحين أحس دنو أجله عهد الى بنيه وخلصائه بما يصلح ذات بينهم ، ويجمع كلمتهم ، ليبقى البيت الطولونى رفيع العماد ، مبرءا من كل ثلم ، ويبقى الملك قابعا فى ساحته لا يبرحها .

فها هو ذا لما اشتدت به علته التى مات بها ، دعا بأحمد بن محمد الواسطى (٤٧) ، وقال له : « يا بنى لمثل هذا اليوم وهذه الحال ربيتك واصطفيتك ، وقد علمت حسن موقعك منى ، وانى فضلتك على الولد وكل أحد ، فلا تخفر الظن بك ، واعلم أن الوفاء أحسن لباس ، وأفضل معقل ، والله يشكره عز وجل لمن استعمله ، حرمى هن أمهاتك وأخواتك » (٤٨) .

فهو يعهد الى أحد خاصته برعاية حرمه من بعده ، والحفاظ عليهن وعدم تعريضهن لما يكرهن . وقد عمد الى التلطف معه ، واستمالته بشتى ضروب الاستمالة لما يعهد اليه به ، فجاءت كلمة « بنى » فى صدر وصاته موحية بقربه من نفسه وقلبه ، مما يدفعه الى الاصغاء اليه ، وجاءت كلمتا : ربيتك واصطفيتك موحيتين بمعان شتى ، منها : افادة الحنو عليه ، وحياطته بشتى ضروب الحياطة ، وتقريبه من حضرته ، وافراده بخالص وده ، وتلك كلها تستدعى اصغاءه اليه ، وانفاذ عهده ، وجاءت كلمة اصطفيتك بعد ربيتك مؤكدة هذه المعانى . وجاء قوله : « وأنى فضلتك على الولد وكل أحد » موقظا فيه معانى الوفاء والمروءة ، واختيار لفظة « الولد » دون سواها يتطلبها المقام ، واستخدام لفظ « كل » يؤكد وثاقة عرى الود بينهما ، وأنه أقرب اليه من الولد وكل البشر ، ومن ثم يؤمل فيه ما لا يؤمله فى الولد ولا فى غيره . ثم دعاه الى عدم نكث العهد ، لأن الوفاء به خير حلية يتحلى بها المرء ، وخير حصن يلوذ به ، وفى ذلك من ترغيبه فى الوفاء بالعهد ما فيه ، ثم قوى ذلك

---

(٤٧) احد كتابه المقربين منه ، أحضره معه من العراق يوم دخوله مصر .

(٤٨) سيرة احمد بن طولون للبلوى ص ٣٣٧ .

ببيان أن الله عز وجل يحب الموفين بالعهود ، ويشكر لهم مسلكهم هذا ، وبعد أن أيقن أن مخاطبه كله اصغاء له ، ألقى اليه عهده : جرمى هن أمهاتك وبناتك . وفى وصفهن بالأمهات والبنات ايحاءات شتى منها : ما يتطلبه ذلك من حسن رعايتهن ، وتعهدهن ، وابعاد المكروه عنهن .

والوصاة على وجازتها مست شغاف القلب ، اذ مهد لها تمهيدا جيدا ، وانتقى لها ألفاظا موحية ، تنقل الى الموصى ما استكن فى أغوار قلب الموصى وهو يجود بأنفاسه الأخيرة . وجاءت كلماته فى الوقت نفسه جزلة فخمة ، أما عباراته فجاءت سلسة منغومة تنبىء برجل ذى ذوق بصير .

قال نسيم : (٤٩) « فلما كان من غد خطاب مولاى للواسطى وما وصاه به ، أحضره وأحضر محمد بن أبا وطبارجى وجماعة من وجوه خاصته وقواده ووجوه دولته وكتابه ، فأحضر أبا الجيش فقال له : يا بنى ، انى لم أرفع الحنث فى يمين البيعة الا بما كنت أحمله الى أمير المؤمنين المعتمد خاصة ، وهو مائة ألف دينار فى كل سنة ، ذكر لى فيما كاتبنى به أنها تكفيه . فكان حملى هذا المال يقينا الحنث فى يمين البيعة بيعته ، فلا تؤخرها عنه ولا تقطعها ، ولو أعيتك الحروب وواصلتك ، فلا تغفل حملها وما يقاومها ، فانك تدفع بها حنث هذا الجيش بأسره فى يمين البيعة ، وتشرح بها صدورهم فى قتال من قصدك ، ممن قهر الخليفة ومنعه أمره وتصرفه فى انفاذ حكمه ، وجميع أمره ، والله يكرمه ويكفيه » .

يعهد « ابن طولون » الى ابنه وولى عهده أبى الجيش خمارويه أن يتقفى أثره فى استجلاب رضاء الخليفة العباسى المعتمد ، بأن يظل يحمل اليه كل عام من خراج مصر ما كان يحمله هو اليه ، وحدد له المبلغ ، وقد حرص الحرص كله على انفاذ ابنه عهده بعد مماته ، فسلك الى ذلك مسالك شتى ، منها : أنه أحضر جماعة من خاصة بيته وقواده

---

(٤٩) ذاته ص ٣٣٨ .

وكتابه ، ليكونوا شهود عيان على وصاته ، فذلك أدعى لانفاذ ابنه عهده ، ودعاه بقوله « يا بنى » ليستثير فيه عاطفة البنوة ليصل الى مبتغاه ، وأعلم ابنه أن فى عنقه لأمير المؤمنين بيعة ، لكنه حنث فى يمين هذه البيعة ، فكان حمل هذا المال الى الخليفة تكفيرا عن حنثه ذاك ، وهو بهذا يستثير فى ابنه عاطفته الدينية بعد أن استثار فيه عاطفة البنوة وقد أكد هذا المعنى غير مرة : « انى لم أدفع الحنث فى يمين البيعة الا بما كنت أحمله الى أمير المؤمنين المعتمد .. فكان حملى هذا المال يقينا الحنث فى يمين البيعة بيعته .. » . وكان ذكيا فطنا حين خبر ابنه أنه بدفع هذه الأموال الى المعتمد سنويا يقى نفسه مغبة الحنث فى يمين البيعة ، وهى مغبة وخيمة اذا علم أن الجيش بأسره قد حنث ، وكأنى به يقول له : نحن قد حنثنا فى يمين البيعة ، وتقفى جيشنا - على كثرته - أثرنا فى ذلك ، فصرنا مسئولين عن حنثنا وحنث جميع أفراد جيشنا ، فلتدرأ هذه التبعة الجسيمة بدفع هذا المبلغ .

ثم قطع على ابنه طريق التعلات ، اذ عهد اليه أن يظل المال موصولا الى « المعتمد » غير مقطوع ، حتى فى أحلك الظروف « ولو أعيتك الحيل وواقعتك » ، وانظر الى كلمة : « واصلتك » تجدها كناية عن استمرار الحرب أمدا طويلا ، ثم لم ينس أن يذكر ابنه أن دفع المبلغ المذكور الى المعتمد يؤلف قلوب جنده ، ويشرح صدورهم لقتال من يقصده ممن قهر الخليفة ومنعه أمره ، يقصد بذلك الموفق طلحة أخا المعتمد الذى أطلق يده فى الخلافة ، وسلب الخليفة جل سلطاته . ثم ختم وصاته بالدعاء للمعتمد بالاكرام ، وأن يكفى أخاه الجبار العنيد ، وفى هذا الختام لمحة ذكية من ابن طولون ، فكأنى به يقول لابنه : انك بهذا المال تكرم المعتمد وتكفيه تسلط أخيه .

هذه الوصاة تكشف عن قيمة خلقية فى نفس ابن طولون ، انها خلق الوفاء الذى لم يتخل عنه حتى وهو يحتضر ، وتكشف فى الوقت نفسه عن سياسى فذ يود أن تبقى حبال الود موصولة بين دولته الفتية وبين الخلافة الأم ، ففى ذلك تحقيق الاستقرار لدولته . لذا حين بلغ المعتمد نبأ وفاة ابن طولون .. اشتد وجده عليه وجزعه ، وقال المعتمد يرثيه :

الى الله أشـــــكو أسى عرانى كوقع الأســـــل
على رجـــــل أروع يرى فيه فضـــــل الوجل
شـــــهاب خبـا وقـده وعـــارض غيث أفـــل
شـــــكت دولتى فقـده وقد كان زين الدول (٥٠)

والمتأمل فى وصاة ابن طولون هذه يلمس اعتماده على الجمـــل الطويلة ، وهى أكثر استيعابا لأفكاه من القصيرة ، والحاحه على الفكرة الواحدة بأساليب متعددة ، تثبيتا للمعنى المراد ، وفيها يبدو أن التعبير القرآنى ومعانيه خالط كلاهما نفسه ، كما ساق وصاته فى أســـــلوب مترسل غير مزدوج .

وقد آتت وصاته ثمارها المرجوة ، اذ قال أبو جعفر محمد ابن عبدكان : ان أبا الجيش لم يزل يحمل هذا المال الى المعتمد حتى تقلد اسماعيل بن بلبل الوزارة فأوقع الصلح بينه وبين الموفق » (٥١) .

قال (أى ابن عبدكان كاتبه) : (٥٢) « فلما فرغ أحمد بن طولون من وصية ابنه فى حمل المال الى المعتمد ، أقبل على وجوه قواده وغلمانه فقال لهم : قد وطأت لكم المهاد بهذه الدولة ، وخلفت لكم من عدتهـــا ما يكفيكم ، فاطرحوا الأحقاد بينكم ، وأسقطوا التحاسد ، واتركوا الاستئثار ، ولتكن كلمتكم واحدة ، وجماعتكم كرجل واحد ، ولا تغتروا بمخاريق أهل العراق ، ومواعيد من يطلب سيئاتكم ، فليس يرأسكم أبدا مثلى ، ولا أحنى منى ومن ولدى عليكم ، فلا تخفروا ذمتى ، واحفظوا صحبتى ، وتربيتى لأكثركم ، وايثارى واحسانى وتفضيلى لجماعتكم ، وهم يحلفون له ويبكون .

بعد أن فرغ ابن طولون من وصاة ابنه بمواصلة ارسال المال الى الخليفة المعتمد ، وفاء له ، وحفاظا على علاقة دولته بالدولة الأم ،

---

(٥٠) القضاة والولاة للكندى ص ٢٣١ . ط بيروت ١٩٠٨ .
(٥١) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٣٣٨ .
(٥٢) ذاته ص ٣٣٩ .

رغب فى جمع شمل الدولة من الداخل ، فأوصى غلمانه ووجوه قواده وكتابه بوحدة الصف ، والالتفاف حول بنيه ، وحياطة الملك الطولونى بأغلى ما يملكون . وكم كان أريبا حين استهل وصاته بقوله : « قد مهدت لكم المهاد بهذه الدولة » كناية عن تحقيق حياة كريمة لهم فى كنف دولته الفتية ، وكأنى به يقول لهم : فى حياطة هذه الدولة والذود عنها حياطة لحياة كريمة تنعمون بها ، وقد جاءت الجملة التالية مؤكدة المعنى نفسه، وتلك براعة من ابن طولون . ثم دعاهم الى نبذ الأحقاد ، وترك التحاسد ورفض الاستئثار ، فتلك معاول هدم تأتى على الدول من القواعد ، ثم بصرهم ما ينبغى أن يكونوا عليه من وحدة الكلمة ، وحذرهم مغبة الاغترار بوعود « الموفق » المعسولة ، ففيها الخسران والبوار ، وأعلمهم أنه أحنى عليهم من جميع البشر ، وأن أولاده من بعده كذلك ، فمن لبانه رضعوا ، ثم عهد اليهم ألا يخفروا ذمته ، وأن يحفظوا صحبته فى بنيه من بعده ، بالالتفاف حولهم ومؤازرتهم ، ثم ختم وصاته بما بدأها به اذ ذكرهم ـ مرة أخرى ـ أياديه عليهم ، واحسانه اليهم .

والوصاة تشهد لابن طولون بحنكة ظلت تلازمه حتى وقت الاحتضار ، وألفاظها معبرة عن معانيه بدقة ، وقد عنى بتثبيت معان عدة فى أذهانهم ، فألبس المعنى الواحد أثوابا تعبيرية متعددة ، وقد مزج فى أسلوبه بين الترسل والازدواج .

وبعد أن فرغ من وصاة قواده وغلمانه وبنيه ، عمد الى تنبيه ابنه وولى عهده أبى الجيش بحق الرعية عليه ، كى تبقى الأواصر بينه وبين القواد والغلمان والرعية موصولة ، فتظل الدولة مهيبة الجانب ، فقال له : « يابنى لا تعدلن عن مشورتى عليك ، فلن تجد أبدا أنصح لك منى ، قد خلفت دخل بلدك يزيد على ما ينوبك بجيشك وسائر مئونتك ، فلا تطلقن فيه يدا بجور ، فيختل أمرك بخرابه ، ولا تقبل بنصيحة من يتنصح لك بما يؤول الى خراب بلدك ، والاجحاف بمعامليك فيه ، فانه عدو مبين من حيث لا تعلم ، فانبذه عنك ، ولا تقربه منك ، وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك الا لين الجانب ، والأمن من المخاوف ، ولم أكن أمنعهم لين جانبى بخلا به عليهم ، ولكنى آثرتك على نفسى

بمنعى لهم لين جانبى ، والأمن من مخافتى ، فاستعمل أنت ذلك معهم ، فتملك قلوبهم ، ويبادروا الى طاعتك ، ويهشوا الى التصرف بين أمرك ونهيك ، فى صغير أمرك وكبيره ، ولم أترك لك عدوا أخافه عليك . واعلم يا بنى أن كل سرف يئول الى اختلاف وتلف ، فاقصد فى ... مهماتك ، ولا تمد يدك الى المال المخزون عند « خير » الخادم (٥٣) ، واجعله ذخيرة لمملكتك ، وأقمه مقام جارحة من جوارحك ، لا تبذلها الا فى شدة تخاف معها فساد سائر جسدك ، أو عندما تقدر باخراجها صلاح سائر جسدك . ثم قال له : واسلك يا بنى سبيلى ، واقتف آثارى فى سائر من خلفت يأنسوا بناحيتك ، ويحسنوا طاعتك ، ولا يميلوا الى عدو يخالفك ، ولا تقبلن مقالة السعاة فيما تقوى به سوقهم عندك ، فكل شر وسوء يئول الى اضمحلال وزوال ، ويهلك فى ذلك من سلكه » (٥٤) .

مهد ابن طولون لوصاته بتلك اللفظة المؤنسة « يا بنى » التى تحرك مشاعر البنوة ، وأعلمه أنه ناصح جد أمين عليه ، ليصغى اليه وينفذ عهده ، وتلك براعة منه . وقد أوصاه بالحفاظ على دخل دولته ، فلا يبدده سدى ، وحذره مغبة اعطائه الوشاة أذنه ، فتلك قاصمة الظهر ومبيدة الدول ، ثم دعاه الى خفض جناحه للرعية ، كى يحظى بودهم خالصا غير مشوب ، ثم كرر دعوته الى عدم السرف ، ومن ثم طلب اليه أن يكتفى بما يجبى اليه من الخراج ، وأن يبقى على المال المخزون لدى « خير » الخادم ، ليكون ذخرا له فى الملمات ، وأن ينزله من قلبه منزلة الجارحة التى هى جزء من الجسد ، ومن ثم لا يفرط المرء فيها الا اذا كان ذلك يدفع الضر عن باقى الجوارح . ثم كرر دعوته اياه الى لين جانبه لرعيته ، وأن يصم أذنيه عن سماع الوشايات . فالوصاة معنية بالنهى عن السرف ، وسماع وشايات الوشاة ، ودعوته الى لين الجانب للرعية .

---

(٥٣) كان يعرف بخير الطويل ، كان يكنى بأبى صالح ، كان خادم المتوكل ، وعمل فى معية أحمد بن طولون ، فقرن به أبا الجيش يؤدبه ، وكان ثقة مأمونا دينا . انظر : السيرة للبلوى ص ٣٤٠ .

(٥٤) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٣٤٠ .

وأسلوبه محكم ، مشرب روح النص القرآنى ، عمد فيه الى تكرير التعبير عن المعنى الواحد ، ليظل لاصقا بذهن المتلقى أمدا طويلا ، وهو أسلوب متأرجح بين الترسل والازدواج ، ولكن يغلب عليه الترسل ، وذلك كله فى ألفاظ جزلة مأنومة ، وأساليب سلسة ، والصورة فيها قريبة من الواقع .

هذه الأمور التى عالجها فى وصاتيه السابقتين ما تزال تلح على خاطره ، وتضغط على فكره ، وتثقل كاهله ، لذا وجدناه يطلع ابنه ولى عهده على دخل الدولة ، ثم يرشده الى اصلاح البيت الطولونى من الداخل ، فقال لأبى الجيش أيضا : « يابنى ، وفى حاصلى ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار ، وهو غير الوديعة ، يكون ذلك لعطاء جيشك وما عسى أن يعرض لك عند مقاومة من يقصدك ، ومادة الخراج بعد ذلك فغير منقطعة عنك ، هذا يا بنى ما تملكه الدولة ، والذى أملكه أنا خاصة من دخل اقطاعى وابتياعى ، ما يحصل لى منه فى كل سنة فى بيت مالى ألف وخمسون ألف دينار ، فاقسمها فى ولدى ، وانظر اليهم بعينى ، وتغمد هفواتهم ، وسد خللهم ، وكفهم عن الفاقة الى غيرك ، وبصرهم رشدهم ، وامنعهم من سرف الانفاق ، فانك أبوهم بعدى ، جبر الله جماعتكم ، وأحسن الخلافة عليكم .

وأنا أكرر عليك القول يا بنى لئلا تنسى ، ليس المال الذى عند خير الخادم لى فتشتركوا بقسمته بينكم ، فلا تظنن أن كل ما قويت يدك على أخذه فهو لك ، فصنه ، وامنع نفسك منه ، واستشعر فيه ما وصيتك ، فان انقادت لك الأمور لم يضرك بقاؤه لك ، وان عارضتك الحوادث كان عدة لك ، فلا تغرنك وجميع مخلفى وحاشيتى السلامة ، فتنسوا ما فى نفوس أهل العراق عليكم ، فأنتم شجا فى حلوقهم ، فلا تأمنوهم ، ولا تناموا عن الحزم فيهم ، فان أحسستم بضعف عنهم ، فابذلوا جميع ما تملكونه فى السلامة منهم ، ولا تضعوا أيديكم فى أيديهم ، فانى أعرف ذنبى لهم ، والله أسأل رعاية جماعتكم . ثم بكى وبكت الجماعة حتى ارتجت الدار لبكائهم » (٥٥) .

---

(٥٥) ذاته ص ٣٤١ .

انه جد حريص على بقاء الملك فى بنيه ، ورسم منهج متكامل فى السياسة وتدبير أمور الحكم ، لذا أطلع ابنه على دخل الدولة ، وأعلمه أنه كاف للانفاق على الجيش ، والاعداد لدرء الأخطار المحدقة بالدولة ، ثم أطلعه على مصادر وقيمة الدخل الخاص به وبأسرته ، ودعاه الى انفاقه على أهله وذويه ، وتعهدهم بضروب الحياطة ، بالحنو عليهم ، والرفق بهم ، وتبصيرهم رشدهم ، والعفو عن مسيئهم ، اذ يصير منهم بمنزلة الأب ، فليسلك معهم سلوك الأب مع بنيه ، ثم دعا لهم بجبـــر جماعتهم ، والقدرة على تسيير أمور الدولة بتمكن واقتدار .

ثم أعاد تذكير ولده المحافظة على المال المدخر لدى « خير » الخادم فنهاه عن قسمته بينه وبين أهله ، فذلك ليس لهم ، بل هو ملك عـــام لا يلتفت اليه الا عند ضراوة النوازل العامة ، ثم أعاد تحذيره من الركون الى أهل العراق ، والغفلة عنهم ، فان قلوبهم انطوت على مستكنات ، وبها جروح غائرة لا تندمل مع الأيام ، ثم ختم وصاته بالدعاء لهم .

عمد ابن طولون الى انتقاء الألفاظ الجزلة المأنوسة ، ذات الايحاءات الجمة ، والعبارات المحكمة القوية التى تنبض بالصدق : يا بنى ، انظر اليهم بعينى ، وتغمد هفواتهم ، وسد خللهم ، وكفهم عن الفـــــاقة الى غيرك .

وما زالت سمة التناسب الدقيق بين الكلمة المعبرة ونوع الاحساس ملازمة له ، وهو يلح على المعانى الحاحا ، بغية الصاقها لا بعقل ولده فحسب ، بل وبوجدانه أيضا ، فيظل على ذكر بها ما بقى فيه عرق ينبض بالحياة . وهو بصدد تحذيره وأهله أهل العراق ، صورهم بالشجا فى حلوق أهل العراق ، فهم يغصون بهم ، وفى التشبيه ابراز المعنوى بصورة مجسدة .

لكنه لم ينس - وهو بصدد اصلاح البيت الطولونى من الداخل - ابنه العباس ، أن يستل موجدته ، ويضمد جراحه ، وأن يسد ثلمة يمكن التسلل منها الى تقويض البيت الطولونى ، « فدعا بابنه العباس ، فأطلقه من قيده ، وخلع عليه ، وقلده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر

من الشامات والثغور . وقال له : أنا أوصيك يا بنى بتقوى الله عز وجل ، ومكافأة أخيك ، والامساك عن الاستطالة عليه ، بزيادة سنك على سنه ، فلا تتركن لمن يقصدكما من العراق مدخلا بينكما يتأتى منه لكما ، ولا تسمع ممن يطلب صلاح نفسه بفساد ما بينكما ، ولا تضمرن لأخيك غير ما تظهره ، فان القلو مجندة .

واعلم أن جوار أخيك لك أصلح من جوار غيره ، ولا تضمر له خلافا فتبسط ما بينكما ، ويجد عدو كما بذلك سببا الى هلاككما ، وقد تقدمت بازاحة علل رجالك ، فاحرص أن يكون خروجك الى عملك قبل وفاتى ، فان الراغب عنك كثير أكثر من المائل اليك ، وأخاف أن تتلوم (٥٦) على الطمع فى موضعى وتتريث ، فتذهب نفسك ، بصرك الله رشدك ، ووفقك ووقاك ما أخافه عليك وأحاذره فيك بمنه » (٥٧) .

انه يستهل وصاته باثارة نوازع الخوف من الله عز وجل فى نفس العباس، بعدم فعل ما يراه مغضبا له ، وتلك براعة منه ، فان مراقبة الله عز وجل والخوف منه جنة واقية ، ثم يدلف فى حنكة الى لب وصاته ، فيعهد الى العباس ألا يزاحم أخاه السلطة ، وألا يستطيل عليه بزيادة سن ، لئلا يجد أهل العراق اليهما سبيلا ، وحذره مغبة الاصغاء الى من يبغون تمزيق ما بينهما من وشائج ، ودعاه الى نزع الموجدة ، واعادة الود الأخوى الى سابق عهده .

ثم ذكره أن جوار أخيه واحة فينانة يجد فى رحابها كل ما ينشد من راحة وطمأنينة ، ثم طلب اليه أن يخرج على الفور الى الأعمال التى قلده اياها ، وألا تسول له نفسه المكث والانتظار ، بغية مزاحمته أخاه السلطة ، وقد عنى بقطع طريق الأطماع عليه ، فعرفه موقف الرعية منه ، ورغبتهم عنه ، ثم ختم وصاته بالدعاء له بأن يبصره الله الرشد ويوفقه ، ويقيه شر هوى مطاع ، ونفس بالسوء أمارة .

---

(٥٦) تاوم فى الأمر : تلبث وانتظر وتأخر .
(٥٧) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٣٤٢ .

وقد أجاد فى مقدمة وصاته وخاتمتها ، اذ بدأها بتخويفه الله عز وجل، وختمها بالدعاء له بما يمكنه من انفاذ عهد أبيه ، وبين المطلع والخاتمة ألفاظ جياد تشف عما خلفها من أحاسيس ، وجمل يغلب عليها الطول ، وهى تنقل ـ فى دقة واحكام ـ دفقات مشاعره وأحاسيسه نحو بنيه ، وهو يعانى سكرات الموت .

يقول البلوى : (٥٨) « ثم شكا بعد ذلك ظلمة فى بصره ، ثم لم يبصر شيئا ، وجعل يخفت (٥٩) ، وتضعف قوته ، وينحل جسمه ، الا أن عقله ثابت لم يتغير منه شىء ، والدليل على ذلك وصيته هذه ، ورأيه فيها الرأى التام الذى لا يكون بأسد منه ولا أقوى ولا أبلغ » .

(٣)

لم تتوقف ملكة الخلق عند « ابن طولون » على التعبير المحكم عن المواقف المختلفة التى تعرض له ، وازجاء وصاياه الى بنيه وخاصته وهو يحتضر ، اذ وجدته قادرا على انشاء الرسائل ، وخوض غمارها بفصاحته المعهودة ، يكشف عن هذا المنحى ما رواه أبو جعفر بن عبدكان « أنه ورد عليه كتاب متملك الروم يسأله الهدنة ، فأجابه الى ذلك وقال له : اكتب الى طخشى بطرسوس أن متملك الروم سألنا الهدنة مدة كذا وكذا ، وقد أجبناه الى ذلك ، على علم منا أنه لم يدعه الى ما سأل اشفاق من سفك الدماء ، ولا تحوز لطلب السلامة ، بل أظن ـ وهو كذلك ـ أنه قد خربت له قصور أو استرمت ، أو لحقه من بعض أعدائه اضطراب اضطره الى الهدنة هذه المدة ، ومن الخسران المبين أن يكون بما التمس ذلك أسعد منا ، واذا قرأت كتابى هذا تعاهد جميع الحصون التى بقربك ، فرم منها ما استرم ، واعمر منها ما خرب ، وجدد منها ما أخلق ، وأنفق على ذلك من مالى الذى فى أيدى وكلائى فى ضياعى التى تقرب منك ، وفرق فى صعاليك أهل الثغر ممن تضر به هذه الهدنة ما يقيم أودهم ويكفيهم ، وأوسع عليهم فى ذلك ، وطالعنى بما يكون منك فيه ، فانى أراعيه ان شاء الله .

---

(٥٨) ذاته ص ٣٤٣ .

(٥٩) خفت المريض : انقطع كلامه وسكت .

قال ابن عبدكان ـ وكان مضطلعا بالكتابة ـ فوالله ما حضرنى لهذا الكتاب أحسن من معانى ألفاظه كلها ، فلم أتجاوزها ، وأنفذ الكتاب وعمل به » (٦٠) .

هذه الحادثة تشير الى أن ابن طولون كان قادرا على تدبيج رسائله الى ولاته فى البلدان الخاضعة لسلطانه ، والى خلفاء الدولة العباسية وولاتهم لكن تبعات الحكم ، وما يتطلبه من اعتماد على كتاب يباشرون مهمة الكتابة نيابة عنه ، حجبت عنا هذا الاتجاه عند ابن طولون .

وقد تناولت هذه الرسالة فى معرض الحديث عن فصاحته ، والآن أعدت ذكرها لهدف آخر ، اذ تقعنا على أحد مناحى ابن طولون الأدبية .

وأفكار الرسالة مرتبة ، اذ خبر واليه على طرطوس أن ملك الروم أرسل يطلب الهدنة ، وانه أجابه الى طلبه ، على الرغم من وقوفه على طويته ، ثم دعاه الى قطع طريق الخداع على ملك الروم ، بالاعداد له ، بتعاهد الحصون واحكامها ، والانفاق على من تضر به الهدنة من أهل الثغر ، كى تظل عزماتهم ماضية ، وهممهم مشحوذة ، ثم حض واليه على سرعة انفاذ ما أمر به ، اذ خبره أنه سيتابعه متابعة دقيقة .

وقد عمد الى الكلمات الجزلة الفصيحة لنقل معانيه الى واليه ، وجاءت جمله متراوحة بين الطول والقصر ، وزواج بين بعضها والبعض الآخر ، فجاء أسلوبه سلسا عذبا ، له فى القلوب تأثيره ، وفى الآفاق مسيره .

كذلك لما كبر على « المعتمد » وأخيه « الموفق » أمر صاحب الزنج ، وطالت محاربته ، انقطعت مواد خراج الشرق عن أحمد الموفق ، وتقاعس الناس عن حمل المال الذى كان يحمل ، فكتب « الموفق » الى « ابن طولون » فى حمل ما يستعين به على أمره ، فأرسل « ابن طولون » اليه مبلغا ضخما من المال ، ولكن « الموفق » استصغره ، وكتب اليه كتابا يعنفه ويهدده فيه ، يقول : (٦١) « ان الحساب يوجب أضعافه ، وبسط

---

(٦٠) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٦١) ذاته ص ٨٢ ـ ٨٥ .

لسانه فيه ، والتمس من أصحابه من يخرج متقلدا عمله ، فاعوزه ذلك ، لما كنا قد ذكرناه من ملاطفة أحمد بن طولون لوجوه أهل الدولة الذين يندب أحدهم لمثله ، وكتب بذلك الى أحمد بن طولون أصحاب أخباره ، فلما قرأ أحمد بن طولون كتاب الموفق قال : وأى حساب بينى وبينه ، أو حال توجب مكاتبتى بمثل هذا وغيره ؟ ، وأجابه جوابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم - وصل كتاب الأمير أيده الله وفهمته ، وكان أسعده الله حقيقا بحسن التخير فى اختياره مثلى ، وتصييره اياى عمدته التى يعتمد عليها ، وسيفه الذى يصول به ، وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده ، لأنى دابت فى ذلك ، وجعلته وكدى ، فاحتملت الكلف العظام ، والمؤن الثقال ، باجتلاب كل موصوف بشجاعة ، واستدعاء كل منعوت بغناء وكفاية ، بالتوسعة عليهم ، وتواصل الصلات والمعاون لهم ، صيانة لهذه الدولة ، وذبا عنها ، وحسما لأطماع الشائنين لها ، والمنحرفين عنها .

وكان من هذه سبيله فى الموالاة ، ومحله فى المناصحة ، حريا أن يعرف له حقه ، ويوفر من الاعظام قدره ، ومن كل حال جليلة حظه ومنزلته ، فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل المال مرة ، والجفاء فى المطالبة أخرى بغير حال توجب ذلك . ثم أكلف على الطاعة جعلا (٦٢) ، وألزم للمناصحة ثمنا ، وعهدى بمن استدعى ما استدعاه الأمير من طاعته يستدعى ذلك بالبذل والاعطاء والارغاب والارضاء والاكرام ، لا أن يكلف من أطاعه مئونة وثقلا ، على أنى لا أعرف السبب الذى ينتج الوحشة ، ويوقعها بينى وبين الأمير أيده الله ، ولا ثم معاملة توقع مشاجرة أو تحدث منافرة ، لأن العمل الذى انا بسبيله لغيره (٦٣) ، والمكاتبة فى أموره الى سواه ، وتقليدى

---

(٦٢) الجعل : ما جعل للانسان من شيء على فعل .

(٦٣) يشير بذلك الى ما كان من المعتمد ، اذ عقد العهد بعده لابنه المفوض ، ولأخيه الموفق من بعده ، وقسم المملكة بينه وبين ابنه المفوض ، فجعل غرب المملكة لابنه المفوض ، وشرقها لأخيه الموفق ، وكتب بينهما بذلك كتابا ارتهن فيه أيمانها بالوفاء بما وقعت عليه الشروط على كل واحد منهما وله .

ليس من قبله ولا ولايته ، فانه والأمير جعفر المفوض أيدهما الله قد اقتسما الأعمال ، وصار لكل واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه ، وأخذت عليه البيعة فيه ، أن من نقض عهده ، أو خفر ذمته ، ولم يف لصاحبه بما أكد على نفسه ، فالأمة بريئة من بيعته ، وفى حل وسعة من خلعه .

والذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرة ، واسقاط رسمى أخرى وما يأتيه ويسومونيه ، ناقض لشرطه ، مفسد لعهده .

وقد التمس أوليائى ، وأكثروا على الطلب ، فى اسقاط اسمه ، وازالة رسمه ، فآثرت الابقاء وان لم يؤثره ، واستعملت الأناة اذ لم تستعمل معى ، ورأيت الاحتمال والكظم أشبه بذوى المعرفة والفهم ، وأدنى الى الظفر والنصر ، فصبرت نفسى على أحر من الجمر ، وأمر من الصبر ، وما لا يتسع له الصدر .

والأمير أيده الله أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده ، وأتوخاه من تأكيد عقده ، بحسن العشرة والانصاف ، وكشف الأذى والمضرة ، ولا يضطرنى الى ما يعلم الله عز وجل كرهى له ، والى أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة ، والعساكر المتضاعفة ، التى قد ضرست رجالها من الحروب ، وجرت عليهم محن الخطوب ، مصروفا الى نقضها ، فعندنا وفى حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر وأولى من الأمير .

ولو أمنونى على أنفسهم فضلا عن أن يرجعوا منى الى ميل لهم ، أو قيام بنصرتهم ، لاشتدت شوكتهم ، ولصعب على السلطان معاركتهم ، والأمير يعلم أن بازائه منهم واحدا قد أبر عليه ، وفض كل جيش أنهض اليه ، على أنه لا ناصر له الا لفيف البصرة وأوباش عامتها (٦٤) ، فكيف بمن يجد ركنا منيعا ، وناصرا مطيعا ، وما مثل الأمير فى أصالة رأيه قصد لمائة ألف عنان عدة له فجعلها عدة عليه ، بغير ما سبب أوجب ذلك .

---

(٦٤) الغالب أن الاشارة الى أن صاحب الزنج وان كان جيشه من رعاع البصرة ومن ماثلهم ، فهو يغلب ما يرسل اليه من الجيوش ، بخلاف أحمد بن طولون وما رئى من جيوش يعتمد عليها .

فان يكن من الأمير اعتاب أو رجوع الى ما هو أشبه به وأولى ، والا رجوت من الله عز وجل كفاية أمره ، وحسم مادة شره ، واجراءنا فى الحياطة على أجمل عاداته عندنا ، والسلام » .

هذه الرسالة أزجتها حنكة سياسية ، وعقل حصيف ، وفكر ثاقب ، وقلب جسور ، وثقة تامة بالنفس ، ومن ثم لم تروع تهديدات « الموفق » أخى « المعتمد » أحمد بن طولون ، ولم تنل من صلابته ، فظل رابط الجأش ثابت الجنان ، وضمن رسالته عناصر شتى ، تتضافر كلها فى النهاية لتحقيق مبتغاه منها ، وهو بث الفزع فى نفس الموفق ، ورفض أسلوبه فى التخاطب معه .

فهو يستهلها بالالماح الى أياديه على الدولة العباسية ، ويومى، من طرف خفى الى منعته وقدرته على مناوأة الدولة الأم بهؤلاء الذين تعهدهم برعايته ، فأصبحوا طوع بنانه يفدونه بالمهج والأرواح ، ومن ثم ما كان ينبغى أن يخاطب بهذا الجفاء ، بل بالتلطف والتودد اليه .

ثم أعلم « الموفق » أن الصواب جانبه ، اذ خاطب بهذه الحدة من ليس تابعا له ، اذ أسند الخليفة « المعتمد » اليه شرقى المملكة ، والى « المفوض » ابنه غربيها ، وما تحت امرة ابن طولون ليس داخلا فيما أسند اليه هو ، فلم هذا القول الغليظ ، والسعى فى صرف ابن طولون واسقاط رسمه ؟ .

ثم أعلمه أن ذلك مفسد لعهده ، داع الى خلعه ، لا سيما أن جنده وخاصته رغبوا اليه فى ذلك ، لكن ابن طولون آثر الابقاء عليه ، وان لم يؤثره الموفق ، وفى ذلك عتاب رقيق للموفق ، وتهديد له فى الوقت نفسه .

ثم أعلمه أن تحت امرته مائة ألف عنان يذبون عن حياض الدولة الطولونية ، ويدرءون عنها مطامع الطامعين ، ولا قبل للموفق بهذه الجموع الهادرة ، وكم كان فطنا حين ذكره عجزه عن ملاقاة صاحب الزنج وجنده من شراذم البصرة وأوباشها ، فأنى له ملاقاة هذه الجحافل التى ربيت على تفدية أحمد بن طولون بمهجها ؟

ثم عمد « ابن طولون » الى تسفيه رأى « الموفق » فى استعداء هذه الجحافل المخلصة لابن طولون عليه هو ، ولو كان أريبا لحرص على ود ابن طولون ومن معه ليكون الجميع ردءا له .

ثم ختم رسالته بدعوة « الموفق » الى نظرة موضوعية ترد اليه صوابه ، وان لم يتحقق منه ذلك فهو على ثقة من نصر الله عز وجل له ، لأنه عز وجل تكفل بنصره على عداته .

والرسالة فى الوقت ذاته تنبىء بمترسل مفتن حذق أصول الفن الأدبى ، وأعانه على ذلك عقل ثاقب ، وفكر منظم ، وتمثل لألفاظ اللغة ومعانيها ، ولسان ذرب .

هذه الرسالة لم تنسب - فيما وقع تحت يدى من مصادر - الى كاتب بعينه ، ولم تنسب فى الوقت نفسه الى ابن طولون . والحادثة السابقة التى رواها « ابن عبدكان » عن « ابن طولون » من املائه عليه ما يكتبه الى طخشى والى طرطوس ، تشير الى أن أحمد بن طولون كان يتدخل بنفسه فى اعداد الرسائل الموجهة منه الى الرءوس فى مكاتبات المواقف الصعبة ، ورسالة كهذه تحمل فى طياتها النذر للموفق أخى الخليفة ، والمسيطر الفعلى على مقاليد الدولة كلها ، والمناوىء الأول لابن طولون ، رسالة هذا حظها من الأهمية لابد أن يكون لابن طولون تدخل فيها بشكل ما ، فالأفكار أفكاره ، وكثير من التعبيرات تعبيراته ، ولكنى أكاد أجزم بتدخل كاتب ماهر فى صياغتها الصياغة النهائية ، وأظنه « ابن عبدكان » كاتب الدولة الأجل ، ورئيس ديوان الانشاء بها .

والرسائل التى وجهها الى ابنه « العباس » حين افترص فرصة تغيبه عن مصر ، واستتبع أناسا من رجال أبيه ، ورحل الى « برقة » رافعا لواء العصيان عليه ، ينضح عليها فكر ابن طولون وعقله ، بل تبدو فيها آثار عاطفة أبوية مكلومة .

فها هو ذا يبعث اليه كتابا ، « وكان فيما ذكره فى كتابه بعد دعاء الصدر : وراجع بك الى الحال التى يحصل لك عاجلها ، ويتوفر عليك ثواب آجلها ، ولا حرمك ثواب برى وطاعتي ، وصرف عنك وزر عقوقى

ومعصيتى . ثم قال له فيه : أحين فقأت النعمة فيك أعين الأعداء ، وبلغت الغاية القصوى من سرور الأولياء ، وبلغت السن التى يكون معها انتفاع الوالد بولده ، واستحكمت ثقتى بك ، وحسن ظنى بالأيام فيك ، واستكفيت على كفايتك وعنايتك عنى ، أتيت ما لا يحسن بك ، ولا يجمل بمثلك .

أستكفى الله جل اسمه مئونة من حملك على ذلك ، وغلبك على رأيك ، فقد سعى فى دينك بما ثلمه ، وعيشك بما كدره ، ودنياك بما نقصها ، وآخرتك بما أفسدها ، ومروءتك بما أرزى بها ، ونعم الله عز وجل بما يدعو الى تبديلها ، وما أنا بآيس من أن يثيبه على عظيم ما ركبه منك ، وجليل ما جناه عليك فى تضييعك حقى ، وما ألبسك من ثوب معصيتى ، وما عرضك اليه من سخط الله جل ثناؤه وغضبه فى اسخاطى ومخالفتى ، فانك اذا ميزته وتبينته لم تجده الا أحد رجلين : اما رجل أطعنا الله عز وجل فيه ، فلزمنا أخذ جناية جناها منه ، أو رجل طمع فى مالك فاغتنم شغل قلبك فقال : أفوز بحظ من دنياه فى هذا الرهج (٦٥) الساطع ، فان أحسست فى أمره نقصا لجأت به الى حيث لا يعرف خبرى ، ولا يدرى أين أمرى ، فميز من شئت من خلصائك ونصحائك ، فقد ترى أمرك ، فانك لا تجده يخرج من هذين القسمين والله المستعان » (٦٦) .

هذه الرسالة أيضا لم تعز الى أحد من كتاب أحمد بن طولون ، ولم تعز اليه نفسه ، لكنى أرجح تدخله فيها بشكل بين ، فألفاظها جزلة فخمة ، وجملها تتراوح بين الطول والقصر ، وجاء بعضها مزدوجا ، والأسلوب كله محكم رصين ، والصورة الخيالية فيها : أحين فقأت النعمة فيك أعين الحساد » جاءت قريبة من واقع أحمد بن طولون ومنحاه فى الحكم ، ثم ما بدا فى الرسالة من ترتيب منطقى بين ، وما تفشى فيها من الروح القرآنى من بدايتها الى نهايتها ، وهذه كلها من خصائص أدب أحمد بن طولون ،

---

(٦٥) الرهج : الغبار ، والمراد : الفتنة ، فمن المجاز : أرهج فلان بين القوم : أثار الفتنة بينهم . أساس البلاغة : رهج .

(٦٦) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٢٥١ .

ومن ثم أذهب مطمئنا الى تدخل أحمد بن طولون بشكل ما ، لكنى لا أستطيع الجزم بنسبتها اليه لحمة وسدى .

ويرفض « العباس » الانصياع لأمر أبيه ، ويصر على عصيانه ، ويدبج كاتبه « ابن حدار » رسالة الى أحمد بن طولون فيها تطاول عليه ، وانتقاص له ، وافصاح عما استكن فى نفس « العباس » من دواعى العقوق ، والرغبةفى الاستئثار بجوانب من ملك أبيه فى افريقية ، ومن يدرى ربما كانت بغيته الملك الطولونى كله . فساءت رسالة الابن أباه،ورد عليه برسالة طويلة تفيض احساسا بالمرارة ، بل بالفجيعة ، وتنبىء بأب مغيظ محنق ، وهى لم تجىء خلوا من ومضات حانية تطل برأسها من حين الى آخر ، على الرغم من غضب الأب وثورته العارمة .

والرسالة نسبها « القلقشندى » (٦٧) الى « ابن عبدكان » ، لكنهـــا جاءت فى سيرة أحمد بن طولون لابن الداية غفلا من النسبة ، على الرغم من أن ابن الداية كتب لآل طولون وعد من غلمانهم ، وروى عن جماعة من خلصاء أحمد بن طولون ، ووردت الرسالة فى سيرة البلوى غفلا من النسبة أيضا ، على الرغم من قرب العهد بين ابن طولون والبلوى .

لكنى أجزم بتدخل أحمد بن طولون فيها تدخلا مباشرا وبشكل أكثـــر وضوحا منه فى الرسالة السابقة . وانى أسوق جزئيات منها تقفنا على العاطفة التى أزجتها ، والعقل الذى رتب جزئياتها .

أجاب أحمد بن طولون ابنه العباس بقوله (٦٨) : « الى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، المثلم لدينه ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته ، سلام على كل منيب ، مستجيب من قريب .

أما بعد فان مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنها ، والنملة يكون حتفها فى جناحها ، وستعلم هبلتك الهوابل (٦٩) ، أيها الأخرق الجاهل الذى ثنى

---

(٦٧) صبح الأعشى للقلقشندى ٥/٧ وما بعدها .
(٦٨) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٢٦٠ - ٢٦٤ .
(٦٩) هبلته أمه : ثكلته .

عن الحق عطفه ، واغتر بضجيج المواكب خلفه ، أى مورد هلكة سلكت ، اذ على الله جل اسمه تمردت ، فانه تعالى قد ضرب لك « مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » ، واعلم أن البلاء باذن الله قد أظلك ، والمكروه قد أحاط بك ، والعساكر قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذنك بحرب وويل ، ..... وما دعانى الى ارفاقك ، والتسهيل من خناقك طول هذه المدة الا أمور ، منها : استضعاف أمرك واحتقاره ، وقلة الاحتفال به واستصغاره ، ومنها : أنا جعلنا تركك على ما اخترته عقوبة لك من اباقك الى أقصى البلاد ، مبعدا عن الوطن والأهل والراحة والمهاد ، وقد فارقت بلدك ، وحرمت أهلك وولدك ، ومنها : أنا علمنا يقينا أن الوحشة دعتك الى الانحياز حيث انحزت ، فأمهلناك ليسكن نفارك ، وقلنا : انك تحن الينا حنين الولد ذى الحسب ، وتتوق الينا توقان ذى الرحم والنسب ، فلم تسمع من واعظ ، ولم تعتد بمحافظ ، وأما الآن ، وقد اضطررنا الى الانزعاج نحوك ، لاستعمالك المواربة والمخادعة فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة ، بل حقيق باللعنة والاهانة ، فعليك من ولد عاق لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والملائكة والناس أجمعين ، لا قبل الله لك صرفا ولا عدلا ، وحاط بك حيث كنت ، ولا حاطك حيث توجهت ، وستعلم أيها المخالف القاطع رحمه العاصى ربه ، أى جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة أتيت .... » .

هذه الجزئيات تحمل على الجزم بتدخل أحمد بن طولون بشكل مباشر فى خلق أفكار الرسالة ، ثم فى صياغتها ، على الرغم من نسبتها الى ابن عبدكان .

(٤)

رأينا « ابن طولون » ـ فيما مر فى ثنايا البحث ـ ذا ملكة منشئة مكنته من ناصية البيان ، وأعانته على القول الفصيح فى شتى المواقف التى تعرض لها ، ونجده ـ فى الوقت نفسه ـ ذا ملكة مكنته من الوقوف على مناحى الجمال فى الكلام ، والتعرف على مناحى الكتاب ومذاهبهم فى الكتابة .

يروى « البلوى » أن « أحمد بن طولون » قد سمع ليلة كلبا ينبح ، فرابه ذلك ، « فقال لغلمانه ـ وهم قيام بين يديه ـ : اركبوا الساعة وامضوا ركضا نحو هذا الكلب ، فانظروا على أى شىء يصيح ، فان وجدتم أحدا

فجيئونى به ، فوجدوا رجلا قائما على باب يدق ، وقد منع أهله غلبة النوم عن أن يسمعوا دقه ، وكلما دق الباب نبح الكلب عليه فأخذوه ، ومثل بين يديه بعد أن طار النبيذ من رأسه ، فسأله أحمد بن طولون عن سر تأخره الى هذا الوقت من الليل ، فرد ردا فصيحا ، وأحسن التلطف فى الاعتذار ، فاستحيا منه أحمد بن طولون لحسن عبارته وبيان قوله ، وتوقف عما كان قد عزم عليه من التأديب له فى الخروج فى مثل هذا الوقت . فقال له : « قد كنا على تأديبك على مخاطرتك بنفسك فى مثل هذا الوقت ، فأزال ذلك عنا جميل عذرك ، وحسن عبارتك عن نفسك ، وفصاحة لسانك ، وعلمنا أن ذلك لا يكون الا فى عاقل ، وكفى بالعقل واعظا ، وقد جعلت العوض من ذلك سرعة ردك الى منزلك ، فلست أشك بأن أهلك لما علموا بأخذنا لك قد قلقوا لذلك » (٧٠) .

فهو قد وقف على جمال أسلوب المتكلم ، وفطن لفصاحته ، ومن ثم عفا عنه ، ورده الى أهله سالما .

كذلك وجدته ابان خروج ابنه العباس عليه « اذا قرأ كتابا من العباس اليه ، تمر به اللفظة البشعة فيقول : هذا من كلام أبى معشر ، وهذه اللفظة من كلام الشيخ السوء ابن حدار ، وهذا من كلام فلان ، وهذا من كلام فلان ، لأنه كان يعرف كلام كل واحد منهم ومذاهبهم » (٧١) .

كذلك لم يكن كتابه يختمون كتابا ، ولا يحررون نسخة حتى يعرضوه عليه ، فان استصابه أمضاه والا غيره » (٧٢) .

كذلك « قال يوما لمحبوب بن رجاء (كاتبه) فى كتاب قد كان عرضه عليه : « أظن ذلك الكتاب قد شارف دمشق ، فقال له محبوب : لا والله أيها الأمير ، هو مؤخر فى ديوان التصفح ، فقال له : ويل لك ، أتشك فى رأيى حتى تطلب مراجعة بعد مراجعة ؟ ، وانما قصدنا مراجعة

---

(٧٠) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٢٠٢ .
(٧١) ذاته ص ٢٦٩ .
(٧٢) ذاته ص ١١٢ .

مرة لا مرتين ، كأنك ترانى بعين من لا يوثق بخاطره ونظره ، فكيف مراجعة مرة » (٧٣) .

هذه الملكة الناقدة كانت - فى تقديرى - أحد العوامل الرئيسة التى نهضت بالكتابة فى العصر الطولونى عامة ، وفى ابان حكم أحمد ابن طولون على وجه الخصوص ، اذ حرص على انتقاء كتاب مفتنين ، جلب جلهم من العراق ، لهم فى ميدان الكتابة باع طويل ، وهم فى الوقت نفسه على دراية بفصاحة الأمير ، ونصاعة بيانه ، وقدرته على نقد الكتاب ، والافصاح عما فى كتبهم من عثرات فنية ، وردها عليهم ، مما دفع الكتاب الى التجويد والتحبير خشية نقد الأمير وسخطه ، « فمثل هذا الأديب المدقق يحمل كتابه على حسن الاختيار ، وتهذيب الكتابة ، والحرص فى التعبير ، وحمل النفس على الاجادة ، وسلامة التفكير ، لينالوا ثقته ويسلموا من أذاه » (٧٤) .

وبعد .....

فهذه جولة فى رياض أدب أحمد بن طولون ، تشف عن أمور ، منها :

أولا : أحمد بن طولون أديب مطبوع ، أوتى ملكة قادرة على الانشاء والنقد معا ، وقد تضافرت عوامل متعددة ، نهضت بموهبته ، حتى سلكته فى عداد الساسة الفصحاء ، ومن ثم صارت فصاحته ، ونصاعة بيانه ، أمرا جليا لأفراد رعيته وكل كتاب عصره ، لذا وصف بالبلاغة والسياسة وحسن التدبير والذكاء والفضل .

ثانيا : ضرب أحمد بن طولون فى ميادين البيان بسهم وافر ، اذ تنوع أدبه بين تعبير محكم سديد أملته عليه المواقف المختلفة ، ووصية يزجيها الى بنيه وخاصته وهو يحتضر ، ورسالة يرسم خطوطها الأولى

---

(٧٣) ذاته ص ١١٣ .

(٧٤) الأدب العربى فى مصر من الفتح الاسلامى الى الفاطميين - لعبد الرازق حميده ص ١٠٦ - مطبعة لجنة البيان العربى .

لكتابه المفتنين ، وبين لمحات نقدية تبصر كتابه مواطن الصواب والخطأ وتنهض بانكتابة حتى تصل بها الى الكمال الذى ينشده .

ثالثا : يشف أدبه كله عن رجل عجم عود اللغة ، ومن ثم امتطى صهوتها الى حيث يشاء ، وانتقى ألفاظه ، فجاءت موحية ، رقيقة حينا ، جزلة مأنوسة حينا آخر ، فكان التناسب الدقيق بين الكلمة المعبرة ونوع الاحساس ، بحيث اكتسبت الكلمة رقتها أو جزالتها وطبيعة جرسها من طبيعة شعوره هو ، لذا جاءت معبرة عن مكنونات نفسه فى دقة واحكام كما جاءت خلوا من الألفاظ الحوشية والمستكرهة .

رابعا : جاء أسلوبه محكما رصينا ، سلسا عذبا يمسك بعضه بتلابيب بعض ، ومن ثم انبعثت عنه موسيقى عذبة تطرب لها الأذن ، ويهش لها القلب ، وكانت جمله تتراوح بين الطول والقصر ، وكان يعمد أحيانا الى الازدواج ، والتكرار المعنوى ، وكلها تتضافر فى الابانة عن معانيه بعيدا عن تكلف القول ، وعباراته خلو من السجع فى الجملة ، وقد عول على الجمل الانشائية والصيغ التقريرية .

خامسا : جاء خياله محصورا فى التشبيه والاستعارة والكناية ، وكلها من وحى البيئة ، وتكاد تعانق الواقع ، وهى فى الوقت نفسه محدودة ، اذ وجد فى الحقيقة متسعا لنقل معانيه الى المتلقين .

سادسا : جاء أدبه كله مشربا الروح الاسلامية التى سرت فى عروقه مسرى الدم فيها ، ومرد ذلك الى حفظه القرآن الكريم حفظا جيدا منذ نعومة أظفاره ، ثم تأثره بالحديث النبوى الشريف ابان اقامته فى مدينة طرطوس ، وتردده عليها ، وغشيانه مجالس المحدثين ، وملازمتهم بها .

سابعا : تفردت وصاياه بسمات خاصة تضاف الى سمات أدبه عامة منها :

(أ) قصده الى تكرار معان بعينها ، أهمته وشغلت عقله ووجدانه ، فكررها بعبارات مختلفة الألفاظ ، بغية تثبيت المعانى فى نفوس من

يوصيهم ، والانتقال فيها من معنى الى معنى آخر يتم فى الغـــالب دون توطئة .

(ب) اهتمامه بالتمهيد لوصاياه تمهيدا مكن به من احداث التأثير المطلوب فى نفوس من يوصيهم ، وعنى كذلك بخواتيم وصاياه ، فجاءت موصولة الأواصر بموضوعات الوصايا ، ومن ثم جاءت المقـــدمات والموضوعات والخواتيم مترابطة متجانسة .

(جـ) خلو وصاياه من الترتيب بين الأفكار ، فكثيرا ما يتناول الفكرة ، ثم ينتقل الى غيرها ، ثم يعود الى الفكرة الأولى مرة أخرى ، ومرد ذلك فى تقديرى الى سيطرة أفكار بعينها على فكره ووجدانه ، ومن ثم لا يفتأ يكررها بغية تثبيتها فى النفوس ، وتمكينها من القلوب . وقد يكون مرد ذلك الى احساسه - وهو المهموم القلق الذى يخشى على ملكه الزوال - بدنو الأجل الذى حال بينه وبين الأناة فى التفكير ، واخراج الأفكار مرتبطا بعضها ببعض .

(د) تقفنا هذه الوصايا على ما اتصف به أحمد بن طولون من بعد النظر ، وحسن التدبير ، والتفكير الدائب فى تنظيم شئون البيت الطولونى ، ورسم مستقبله ، ليبقى الملك قابعا فى رحابه .

ثامنا : ظلت الفصاحة ونصاعة البيان سمة ملازمة له ، حتى انتزعت روحه من بين جنبيه ، اذ حدثت « نعت » أم « أبى العشائر » ابنه قالت : كنت جالسة بين يديه ، والعصابة فى يدى ، وقد أيست منه ، وأنا أنتظره أن تقبض روحه فأشد لحييه ، ولسانه ضعيف ، الا أنه طلق اذا تكلم ، ففتح عينيه ، ثم غلقهما ثم فتحهما ، ونظر الى نظر من رجع بصره اليه ، فحمدت الله على ذلك ، ثم قال بصوت قوى ، ولسان ذرب : « يارب ارحم من جهل مقدار نفسه ، فأبطره حلمك عنه . ثم تشهد أحسن شهادة وأتمها ، وقضى فى آخر تشهده » (٧٥) .

---

(٧٥) سيرة احمد بن طولون للبلوى ص ٣٤٣ .